دافـيـــد كوبرفيـلـد

تشـــارلـــز ديكـنز

الناشر
دار الآفاق العربية

ديكنز، تشالز
دافيد كوبر فيلد
ط 1 ، القاهرة : دار الآفاق العربية 2018
177 ص ، 20 سم

1- الروايات الانجليزية.

أ. العنوان 823

تدمك: 9 – 412 – 344 – 977 – 978
رقم الإيداع : 3737 / 2018
الطبعة الأولى
1439 هـ / 2018 م

جميع الحقوق محفوظة
لدار الآفاق العربية
نشر – توزيع – طباعة
55 شارع محمود طلعت من ش الطيران
مدينة نصر – القاهرة
تليفون : 00202- 22617339 تليفاكس : 00202-22610164

Emails: dar.alafk@yahoo.Com
selim.selim10@yahoo.com
daralafak2017@gmail.com
dar.alafk@Gmail.com

تعريف بالمؤلف

هو **تشارلز جون هوفام ديكنز** ولد فى فبراير عام 1812.

بأجماع النقاد يعد اعظم الروائيين الأنجليز في العصر الفيكتوري، ولاتزال الكثير من أعماله تحتفظ بشعبية كبيرة حتي اليوم.

يتميز أسلوبه بالمداعبة البارعة والسخرية اللاذعة، برع في تصوير حياة الفقراء وتحدي المسئولين في عصره القائمين علي المدارس والسجون ودور الرعاية والمياتم.

ومن أشهر أعماله التي ماتزال باقية حتي اليوم "أوليفر تويست"، و"قصة مدينتين"، و"ديفيد كوبرفيلد" و"أوقات عصيبة".

وبسبب شعبية رواياته وقصصه القصيرة فإن طباعه أعماله لم تتوقف أبداً وظهرت في العديد من الدوريات والمحلات بصيغة مسلسلة أولاً وكان ذلك هو الشكل المفضل للأدب وقتها.

ولد **ديكنز** لأسرة كبيرة العدد وفقيرة كان له ثمانية أشقاء، وعاش طفوله يائسة لأن والده كان يغمل في وظيفة بسيطة وأضطر أن يستدين أموالاً ولم يتمكن من سدادها فدخل السجن ولهذا أضطر **ديكنز** لأن يترك دراسته وهو طفل والتحق بأعمال شاقة من أجل أن يساعد في الأنفاق علي عائلته، وقد كتب **ديكنز** عن تجاربه وأنطباعاته المريرة التي مر بها أثناء طفولته وصورها في قصصه وأعماله.

نشر **ديكنز** مايزيد عن أثنتي عشر رواية مهمة وعدد من القصص القصيرة وبعض المسرحيات، وفي سن الرابعة والعشرين وبالتحديد في عام 1836م

أصدر **ديكنز** أولي روايته الأدبية التي كانت بعنوان "مذكرات سيكويك" والتي لاقت نجاحا ساحقاً.

ومن أشهر رواياته التي أشتهرت عالميا وترجمت لعدة لغات عالمية ونشرت عام 1861 رواية "الأمال العظيمة" وأصبحت محط أنظار العاملين في السنيما ليقتبصوا منها أكثر من 250 عمل مسرحي وتلفزيزني.

توفي **تشالز ديكنز** عن عمر يناهز 85 عاماً بعد أن ترك خلفه كنز كبير من الأعمال الأدبية التي أثرت الحياة الثقافية.

وتعد رواية "دايفيد كوبر فيلد" من أشهر رواياته وهي عبارة عن ترجمة ذاتية لأن كثير من عناصر الرواية استمدت من أحداث وقعت في حياته ولقد قال في مقدمته للطبعة الأولي التي ظهرت عام 1867:

" كباقي الآباء والأمهات، في أعماق قلبي ابن مفضل أسمه ديفيد كوبر فيلد".

- 1 -
البيـــــت

1ـ كيف كان مولدي

اسمي "دافيد كوبرفيلد" .. وهاأنذا أكتب لكم قصة حياتي ..

ولدت في **بلاندرستون** .. وقد مات أبي قبل مولدي بفترة قصيرة.

وفي إحدى الأمسيات، كانت أمي جالسة قرب نار المدفأة، وكانت حزينة على مصيرها ومصير طفلها اليتيم البائس.

ولمحت أمي مس "بيتسي" وهي تسير خارج سور الحديقة. وكانت مس "بيتسي" تسير متمهلة تجاه باب البيت. وبدلا من أن تدق الجرس، دست أنفها لتنظر إلى داخل البيت من خلال النافذة.

ومس "بيتسي" هي عمة أبي، ولذلك فقد كانت تعتبر بالنسبة لي عمتي الكبرى، وكان اسمها الحقيقي مس "بيتسي تروتوود"، وكانت تعيش مع خادم واحد في كوخ متواضع جوار البحر. وكانت قد تزوجت من قبل، ولكن زوجها كان رجلاً سيئاً. لذلك فقد طردته.

وكانت عمتي على علاقة طيبة مع أبي .. ولكنها غضبت عليه حين تزوج أمي. وكانت عمتي تدعوها دائما باسم "اللعبة الغبية". ولهذا السبب تشاجرت مع أبي ولم تلتق به بعد ذلك إطلاقاً.

وعندما رأت أمي مس "بيتسي تروتوود" وهي تطل من خارج النافذة، قامت بسرعة وفتحت باب البيت لتستقبلها.

- ألست أنت مسز "كوبرفيلد"..

فقالت أمي:

- نعم .. أنا هي .. تفضلي بالدخول.

ودخلت مس "بيتسي"، وجلست السيدتان معاً، ثم بدأت أمي في البكاء، فاستاءت مس "بيتسي" **وقالت لأمي**:

- أوه .. أوه! .. لا تفعلي ذلك!

ولكن أمي استمرت في البكاء، وعندئذ وضعت مس "بيتسي" يديها برفق حول وجه أمي، **وقالت لها برفق:**

- يبدو أنك ما زلت طفلة صغيرة .. يجب أن تتناولي بعض الشاي .. ما اسم البنت..؟!

فقالت أمي:

- لا أعرف إن كنت حاملا في ذكر أم أنثى ..
- أقصد البنت الخادمة التي تعمل عندك ..
- آه .. خادمتي اسمها "بيجوتي"

فقامت مس "بيتسي" باستدعاء الخادمة، وطلبت منها إحضار بعض الشاي .. ثم التفتت إلى أمي **وقالت لها**:

- نعود إلى الحديث عن الجنين الذي ما زلت تحملينه ... إني أرغب في أن يكون أنثى .. ولابد أن يكون أنثى .. وأنا أطلب منك أن تطلقي عليها اسم "بيتسي تروتوود كوبرفيلد". وأعدك بأن أكون صديقة لها.. وعلى فكرة، هل تعرفين شيئاً عن الطبخ وإمساك الحسابات والإشراف على إدارة منزل..؟!

فقالت أمي:

- لا أعرف كثيرا عن ذلك .. ولكني أرغب في تعلم هذه الأشياء.

ثم شرعت أمي في البكاء مرة أخرى. **فقالت عمتي:**

- كفي عن البكاء .. حتى لا تمرضي وحتى لا تتأثر بمرضك الطفلة التي ستلدينها.

وعندما أحضرت الخادمة "بيجوتي" الشاي .. لاحظت أن أمي متعبة، فذهبت على الفور لإحضار الطبيب. وبمجرد وصول الطبيب، وكان اسمه مستر "شيليب"، صعد على الفور إلى غرفة أمي.

ومرت عدة ساعات إلى أن ظهر الطبيب مرة أخرى نازلاً على السلم، فأسرعت إليه عمتي **وسألته في لهفة**:

- هاه يا دكتور .. كيف حالها؟

فقال الطبيب:

- مسز كوبرفيلد في حالة طبية.
- ولكني أسأل عن حال المولودة.

وعندئذ **قال الطبيب**:

- آه .. لقد ولدت ذكراً!

ولم تنطق عمتي بكلمة واحدة. ولكنها هبت واقفة وأسرعت بالخروج من البيت .. ولم تعد إليه بعد ذلك أبداً .. وهكذا كان مولدي .. أنا "دافيد كوبرفيلد"..!

2ـ وبدأت أدرك الأشياء

ومن الذكريات المبكرة التي مازلت أتذكر وجه أمي وشعرها الجميل .. أما بيجوتي الخادمة فلا أتذكر من ملامحها سوى عينيها السوداويون وخدودها الحمراء مثل لون التفاح .. واذكر المطبخ والدجاج الكثير الذي كان يجري في حوش البيت. وكانت الدجاجات تبدو لي في تلك الأيام كما لو كانت أضخم مني ..

ومازلت أذكر المعيشة والجلوس، حيث كانت أمي وبيجوتي تجلسان في كل مساء.. وما زلت أذكر كذلك منظر البيت من الخارج، حيث كانت تبدو نوافذ غرفة النوم .. وكذلك أذكر منظر حديقة البيت والسور المرتفع الذي كان يحيط بها. وفي تلك الحديقة كانت هناك مجموعة من أشجار الفواكه. ومازلت أذكر كيف كانت أمي تقوم بجمع الثمار في سلة كانت تحملها.

وكنت أنا وأمي نخشى قليلاً من الخادمة "بيجوتي" وفي إحدى الأمسيات كنت جالساً مع "بيجوتي" في غرفة المعيشة بجوار المدفأة.. وكنت اقرأ لها أحد الكتب.. وكنت متعباً لدرجة أني لم أعد قادراً على الاحتفاظ بعيني مفتوحتين .. ومع ذلك فقد كنت ألاحظ أبرتها وهي تدخل في القماش وتخرج منه في حركات رتيبة. وتطلعت عندئذ إلى وجهها .. وكانت تبدو في نظري جميلة.

وسألتها فجأة:

- "بيجوتي" .. هل تزوجت من قبل ..؟

فردت بسرعة لفتت انتباهي:

- لماذا يا "دافيد" .. وما الذي جعلك تفكر في موضوع الزواج؟

فعاودت سؤالها من جديد:

- أقصد .. ألم تتزوجي من قبل؟ .. فأنت سيدة جميلة جداً .. أليس كذلك؟!

ومرت فترة صمت قصيرة، وعاودت "بيجوتي" الخياطة بأبرتها وهي تقول:

- أنا جميلة؟! .. لا يا عزيزي الصغير!

ولكني تساءلت مرة أخرى:

- "بيجوتي" .. إذا كنت قد تزوجت .. رجلا ما، ثم مات هذا الرجل .. ألا يصبح في مقدورك أن تتزوجي رجلاً آخر .. أليس كذلك يا "بيجوتي"..؟!

فقالت مترددة:

- بعض الناس يرغبون في ذلك.. وبالنسبة لي فإني لا أرى ضرورة لذلك .. إن وجهات نظر الناس تختلف بالنسبة لهذا الموضوع.
- وما هي وجهة نظرك أنت يا "بيجوتي"..؟

وتمهلت "بيجوتي" قليلاً قبل أن ترد:

- وجهة نظري هي أن تستمر فيما كنت تقرأه..

ولاحظت عندئذ أن صوتها كان يبدو غريباً، فنظرت إليها مستعطفاً. وقالت:

- ألست غاضبة مني يا "بيجوتي"..؟

فقامت على الفور، وقبلت جبهتي وقالت:

- لا يا عزيزي .. ولكني أرغب في أن تسمعني الكثير عن تلك الأشياء التي كانت تقرأها لي ..

وعلى هذا ، فقد واصلت القراءة..

وبعد فترة سمعنا جرس الباب، فذهبنا لنفتحه.. كانت أمي تبدو في غاية الجمال. وقد عادت إلى البيت ومعها رجل كنت قد رأيته من قبل .. أنه الجنتلمان الذي أوصلها إلى البيت عندما خرجت من الكنيسة يوم الأحد الماضي .. وكان اسمه: "مستر ماردستون".

وانحنت أمي وقبلتني، وعندئذ قال الجنتلمان:

- يا عزيزي الصغير .. كم أنت محظوظ!

ثم وضع يده على رأسي، فوضعت يدي على يده وأزحتها.

فقال الرجل وهو يقبل يد أمي:

- أن حبه لك لا يدهشني!

ولكنني أصبت بالدهشة وغضبت من ذلك، ولكن الرجل حياني قائلاً:

- تصبح على خير يا عزيزي الصغير!

فرددت تحيته، ولكني لم أسلم عليه يداً بيد وعندما استدار لينصرف التفت إلى.... وكان يبدو بالنسبة لي رجلاً سيء المنظر. ولم أشعر نحوه بأي حساس من الحب.

وذهبنا إلى غرفة المعيشة. وقالت "بيجوتي" التي كانت تقف منتصبة في وسط الغرفة:

- أرجو أن تكوني قد أمضيت أمسية طيبة يا مسز "كوبرفيلد".

فقالت أمي:

- شكرا لك .. كانت أمسية طيبة جداً..!

وقالت "بيجوتي":

- إن رؤية الغرباء أمر يبعث على السرور في بعض الأحيان

فقالت أمي بارتياح:

- تماماً..!

وجلست على أحد المقاعد، وسرعان ما استغرقت في النوم، ولكني سرعان ما تنبهت مستيقظاً مرة أخرى، ورأيت أمي و"بيجوتي" جالستين. ويدور بينهما حديث متواصل .. وكانت عيونهما مغرورقة بالدموع.

وكانت "بيجوتي" تقول:

- إن مستر "دافيد كوبرفيلد" لا يحب هذا الرجل!

فصاحت أمي:

- أوه .. أنك تدفعيني إلى الجنون .. كيف تجسرين على الحديث معي بمثل هذه القسوة؟ أنت تعرفين تماماً إني بدون أصدقاء يهتمون بي أو أهتم بهم!

فقالت "بيجوتي" على الفور:

- هذا هو السبب فيما أحدثك فيه .. لا يجب أن تفعلي ذلك .. لا يجب ..!
- وماذا أفعل إذا كان البعض يحبونني .. إني لا أستطيع أن أصده .. ولا أستطيع أن أجعل من نفسي امرأة قبيحة..!

واتجهت أمي نحوي وهي **تقول بعطف:**

- عزيزي "دافيد" .. إنها تقول إني لا أحبك..!

فصاحت "بيجوتي" قائلة:

- إني لم أقل ذلك إطلاقاً!
- لا .. بل قلته .. قلته .. فهل أنا أم سيئة بالنسبة لك يا "دافيد"؟ .. هل أنا قاسية عليك أو غير شفوقة بك .. إني أحبك يا "دافيد" .. أليس كذلك..؟!

ثم بدأنا نبكي جميعاً.. وذهبت إلى السرير وبدأت استغرق في النوم وأن أحس بأن عيني مبللتان بالدموع.

وفي يوم الاحد التالي، خرجت أمي من الكنيسة ومعها الجنتلمان، وأخذا يتمشيان سوياً صوب البيت. وكان الرجل يريد أن يرى زهورنا المزروعة في حديقة البيت. وطلب من أمي مستأذنا في أن يقطف زهرة.

وعاد الرجل إلى بيتنا بعد ذلك مرات ومرات، وقد اعتدت على رؤيته، ولكني مع ذلك لم أكن أحبه.

وفي صباح أحد الأيام، كنت مع أمي في حديقة البيت حين وصل مستر "ماردستون" راكباً على حصان. وقال أنه ينوي زيارة أصدقاء له موجودين في مركب شراعي بمنطقة **أويستوفت**. وأرسلتني أمي إلى "بيجوتي" بالدور العلوي .. ومن هناك كانت "بيجوتي" تنظر من النافذة، ورأت أمي ومعها الجنتلمان وهما يسيران في الطريق.. وغضبت "بيجوتي" من هذا المنظر، فأخذت تمشط شعري بعنف وبطريقة آلمتني.

وفي اليوم التالي، أو ربما بعد ذلك قليلاً.. طلبت مني "بيجوتي" أن أذهب معها لزيارة أخيها.. وكانت أمي آنئذ خارج البيت بينما كنت جالساً مع "بيجوتي" في غرفة المعيشة بجوار المدفأة..

نظرت "بيجوتي" إلى وجهي عدة مرات. وكانت تفتح فمها كما لو كانت تريد أن تتكلم، ولكنها كانت تغلقه على الفور وتظل صامتة. **ومع ذلك فقد قالت أخيراً:**

- مستر "دافيد" .. هل ترغب في الذهاب معي لزيارة أخي في **يارموث** .. ونبقى هناك لمدة أسبوعين ..؟!

فسألتها:

- هل أخوك رجل طيب يا "بيجوتي"..؟
- نعم .. إنه رجل طيب .. وفي **يارماوث** سترى البحر والمراكب والسفن والصيادين والرمال .. وهناك ولد صغير اسمه "هام" يمكنك أن تلعب معه!

وتساءلت:

- ولكن ماذا ستقول أمي ..؟
- أوه .. ستدعنا نذهب إلى هناك .. وسأطلب منها ذلك بمجرد عودتها إلى البيت .. إنها ستبقى مع مسز "جرانر" ولن تكون وحدها.

وهكذا تم ترتيب كل شيء .. ومرت أيام قليلة قبل أن يحل موعد مغادرتي للبيت .. وركبت أنا و"بيجوتي" عربة صغيرة مخصصة لنقل المسافرين وأمتعتهم.

وما زلت أذكر حتى الآن كم كنت شغوفاً بمغادرة البيت ... وأحسست عندئذ كما لو كنت أغادره إلى الأبد ..

وأذكر تماماً كيف غمرتني أمي بالقبلات عند بوابة البيت .. وبدأت أبكي .. وبدأت أمي تبكي أيضاً..

وعندما تحركت العربة خارجة من البوابة .. جرت أمي خلفها. وطلبت من السائق أن يتوقف لتتمكن من تقبيلي مرة أخرى ..

ونظرت خلفي.. فرأيت أنها ما زالت واقفة على الطريق .. ثم رأيت مستر "ماردستون" وهو قادم نحوها. وكان يبدو غاضباً عليها بسبب بكائها على فراقي..!

3ـ زيارة لمستر بيجوتي:

كان الحصان الذي يجر العربة أكسل حصان في العالم. فقد كان يسير ببطء شديد وقد أحنى رأسه إلى أسفل. وعلى طول الطريق كانت العربة تدخل إلى بعض الحواري الضيقة لتسلم صندوقاً في أحد المنازل ، أو تسلم سريراً في منزل آخر.

وكانت الخادمة بيجوتي تحمل على ركبتيها ربطة بها الكثير من أنواع الطعام .. وقد أكلنا حتى شبعنا من الأكل. ونمنا حتى شبعنا من النوم. ولكن الرحلة كانت طويلة وشاقة ومجهدة، وكم فرحت حين وصلنا إلى **يارماوث**.

كانت ضواحي المدينة أراضي واسعة منبسطة .. وكان البحر يبدو واضحاً من خلال صفوف البيوت المتناثرة هنا وهناك وفي كل مكان. لدرجة يصعب معها معرفة أين تنتهي المدينة، وأين يبدأ البحر..

وسارت العربة عبر شارع تفوح منه رائحة السمك، ثم توقفت قرب حانة. وعندئذ **صاحت "بيجوتي"**:

- ها هو "هام" .. كم أصبح كبيراً هذا الفتى..!

وبالفعل كان فتى يافعاً ضخماً. تطول قامته إلى نحو ستة أقدام، ولكن وجهه يبدو كوجه طفل تعلوه خصلات من شعر مجعد.

كان "هام" يقف خارج الحانة منتظراً وصولنا، وسرعان ما حملني على ظهره وحمل صندوقي تحت ذراعه، وحملت "بيجوتي" صندوق آخر. وسرنا عبر عدة حارات أرضها مغطاة بالرمال. وتجاوزنا البيوت التي يسكنها بناءوو السفن والمراكب .. ثم البيوت التي يسكنها صناع الحبال .. ثم جميع البيوت والمحلات الأخرى التي يسكنها أو يعمل بها مختلف أنواع الصناع والحرفيين

الذين يعملون في مختلف العمال والصناعات المتعلقة بالسفن .. وأخيراً وصلنا إلى مكان واسع مفتوح، أرضه مغطاة بالرمال.

وهنا **قال "هام"**:

- ها هو بيتنا يا دافيد ..!

ونظرت إلى مختلف أركان المكان .. ولكني لم أر بيتاً على الإطلاق .. ولم يكن هناك سوى مركب كبير وأسود اللون، تطل من أعلاه أنبوبة من الحديد يخرج منها الدخان .. وفيما عدا ذلك لم يكن هناك أي نوع من أنواع البيوت في ذلك المكان.

فتساءلت مندهشاً:

- هل تقصد هذا الشيء الذي يبدو كما لو كان قارباً ..؟!

وقال "هام":

- نعم .. هذا بيتنا..!

لقد سررت كثيراً من منظر هذا البيت العجيب من الخارج، فقد كان الباب يبدو مشقوقاً في جدار القارب. كما شقت أيضاً بضع فتحات تستعمل كنوافذ صغيرة في كل من جانبي القارب، وكان أعلاه مغطي بسقف من الخشب ..!

وازداد سروري حين تأكدت من أن هذا البيت العجيب كان قارباً حقيقياً كثيراً ما كان يمخر عباب البحار، ولم يقصد بناؤوه أن يستعمل كبيت في أي وقت من الأوقات .. ومع ذلك فكم كان ظريفاً أن أعيش في قارب مرتكز على الأرض وغير طاف على سطح المياه..!

دخلنا البيت، وكان نظيفاً جداً من الداخل .. كانت هناك منضدة وساعة كبيرة معلقة على الجدار وبجوارها بعض الرسوم والصور، وكانت هناك مجموعة من المقاعد ومن الصناديق المستخدمة كمقاعد.

ثم فتحت "بيجوتي" باباً صغيراً يؤدي إلى حجرة صغيرة خصصت لنومي .. كانت حجرة لطيفة تقع بمؤخرة القارب .. حوائطها بيضاء .. وفيها مرآة محاطة بإطار من أصداف القواقع.

وكانت رائحة السمك تملأ هواء البيت كله. وأخبرتني "بيجوتي" أن أخاها يعمل في صيد القواقع.

وقد استقبلتنا بداخل البيت سيدة في غاية الأدب اسمها مسز "جاميدج"، كما كانت هناك بنت صغيرة اسمها "اميلي" .. فرت هاربة واختبأت عندما رأتني.

وتناولت الطعام .. وكان سمكاً ..!

ثم ظهر بعد ذلك رجل له شعر كثيف داكن اللون يغطي رأسه وفوديه وخديه وذقنه .. وقام الرجل بتقبيل "بيجوتي" بحرارة .. فقد كان أخاها مستر "بيجوتي".

كان رجلاً طيباً .. **وقال لي بصوت طيب**:

- مرحبا بك عندنا يا مستر "دافيد"، إني فخور بزيارتك لنا .. وأرجو أن تكون سعيداً معها (وأشار إلى مسز "جاميدج") .. ومع "هام" .. ومع "اميلي" الصغيرة!

وبعد ذلك تركنا وذهب ليغتسل .. وعندما عاد، كان وجهه أكثر احمراراً .. مثل لون القوقعة الذي يتحول إلى اللون الاحمر حين تغمر في الماء.

وفي المساء جلسنا جميعاً جوار المدفأة. . وعلمت أن هام ليس ابنا لمستر "بيجوتي"، ولكنه ابن شقيقه الذي مات غريقاً في البحر .. كما علمت أن "اميلي" الصغيرة بنت صهر مستر "بيجوتي" الذي مات أيضاً.. أما مسز "جاميدج" فقد كانت أرملة لصديقة مستر "جاميدج" الذي كان يعمل معه في نفس القارب، ولكنه غرق في البحر منذ فترة طويلة، ولم يعد لمسز "جاميدج"

أي مأوى سوى بيت صديق زوجها المستر "بيجوتي"، فعاشت معه في نفس البيت.

وعندما توجهت للنوم .. كنت أسمع صوت الرياح مختلطاً بصوت أمواج البحر.. وحلمت بأن هذا البيت القارب أخذ يشق طريقه في البحر الواسع .. أن مستر "بيجوتي" كان القبطان!

وفي صباح اليوم التالي خرجت لأتمشى على الشاطئ .. وكنت مع اميلي. **وسألتها**:

- أعتقد أنك تحبين البحر ..؟!

فأجابت على الفور:

- لا .. إني أخاف منه .. لقد رأيته وهو يحط قارباً كبيراً إلى قطع صغيرة .. إنه جبار وقاس على رجالنا..!

وظللنا نسير سوياً إلى أن وصلنا إلى رصيف ممتد كاللسان بداخل البحر مخصص لرسو السفن والقوارب الكبيرة.. وظلت "اميلي" تسير وحدها فوق هذا اللسان حتى وصلت إلى حافته النهائية عند المياه العميقة، ثم أخذت تجري عائدة، **فقلت لها مندهشاً**:

- لقد قلت لي منذ لحظات أنك تخافين البحر .. وهاأنذا أراك لا تخافين منه.

فقالت "اميلي":

- إني أخاف منه عندما تهب العواصف .. ولا أخاف منه عندما يكون هادئاً.. مثل حالته الآن..

لذلك فقد ضحكت من خوفي عليها حين كانت عند حافة الرصيف عند المياه العميقة .. ومع ذلك فقد شعرت في بعض الأوقات في حياتي المستقبلة

التي عشتهما فيما بعد، أنه كان من الأفضل لو أنها قد سقطت في البحر في تلك المرة.

لقد أحببت "اميلي" الصغيرة .. كانت مجرد طفلة.. وكانت مجرد ولد صغير .. ولكن هناك شيئاً في غاية الجمال ينبثق دائماً من ذلك الحب النقي البسيط الذي يربط أحياناً بين الأطفال الصغار.

كنا نتمشى دائماً على رمال شاطئ **يارماوث**.. وكنا نقضي هناك الساعات تلو الساعات. وقد لاحظت "بيجوتي" ومسز "جاميدج" مدى سعادتنا .. **وتهامسنا علينا:**

- أليس جميلين وهما يلعبان معا..؟!
- وحين كان مستر "بيجوتي" يرانا معاً .. أنا و"اميلي" .. كان يبتسم خلف غليونه الموضوع في فمه.

وقد لاحظت مسز "جاميدج" لم تكن سعيدة في كل الأحيان.. فعندما ذهب مستر "بيجوتي" في إحدى الأمسيات ليسهر مع بعض أصدقائه، أعتل مزاج مسز "جاميدج" وأخذت تقول:

- إني وحيدة .. وكل الأشياء ضدي..

ثم أخذت تشكو من شدة البرد، فقالت لها "بيجوتي":

- إن البرد كان شديداً طوال اليوم .. لقد شعرنا كلنا به..

فقالت مسز جاميدج:

- ولكني أشعر بهذا البرد الشديد أكثر من كل الناس!

وعندما تناولنا طعام العشاء في تلك الأمسية.. كانت الأسماك صغيرة ومملوءة بالشوك. وأغلبها كان قد احترق أثناء طهيه، وجلسنا صامتين يلفنا شعور شبيه بالحزن، أما مسز "جاميدج" فقد انخرطت في البكاء وهي تقول:

- إني أشعر بالحزن أكثر منكم جميعاً..!

وعندما عاد مستر "بيجوتي" إلى البيت في الساعة التاسعة مساء.. كانت مسز "جاميدج" لم تزل تبكي وهي جالسة في أحد أركان البيت اندهش مستر "بيجوتي" **وسألها**:

- ماذا في الأمر .. ولماذا تبكين هكذا .. كوني مبتهجة ..!

فقالت:

- لقد ذهبت لتسهر خارج البيت .. وإني آسفة لذلك .. وأشعر بأني السبب الذي دفعك إلى الخروج من بيتك..!

فقال مستر "بيجوتي" ضاحكاً:

- تقولين أنك السبب الذي دفعني للخروج؟ .. لم يكن هناك سبب يدفعني للخروج سوى رغبتي في فعل ذلك.

فقالت مسز "جاميدج" وهي تذهب استعداداً للنوم:

- إني وحيدة .. ولا يحبني أحد وأشعر بالأشياء أكثر مما يشعر بها الناس الآخرون .. ولقد فشلت في جعل نفسي مثلما أريد أن تكون .. وفشلت في جعل هذا البيت مريحاً كما يجب..!

وعندئذ **قالت لي "بيجوتي"**:

- أنها تفكر في الرجل القديم..!

فتساءلت مندهشاً:

- ومن هو هذا الرجل القديم ؟

فقالت ببساطة:

- زوجها الذي مات.

ومر الأسبوعان، وانتهت زيارتي، وحلت ساعة الرحيل.. وشعرت بالحزن لاضطراري إلى الافتراق عن "اميلي" الصغيرة.

وعندما كنا نتوجه إلى المكان الذي ستقوم منه عربة السفر، سرت أنا و"اميلي" ذراعاً في ذراع.. وعندما تحركت العربة شعرت بفراغ في قلبي .. برغم إني كنت مسروراً بأني أصبحت في طريق العودة إلى أمي.

وأعلنت سروري هذا لـ"بيجوتي".. ولكنها لم تكن مسرورة لذلك، بل كانت في منتهى الحزن!

وأخيراً وصلنا إلى البيت .. وما زالت إلى الآن أتذكر ذلك الجو البارد الذي كان يلفه، وتلك السحابات الداكنة المحملة بالأمطار التي كانت تعلوه..

وفتح الباب .. فاندفعت جارياً صوبه والفرح يغمرني، ولكني فوجئت بوجود خادمة غريبة لا أعرفها **فسألت "بيجوتي"**:

- ما هذا يا "بيجوتي".. ألم تعد أمي إلى البيت بعد ..؟!

فقالت "بيجوتي" متنهدة وبتردد:

- نعم .. لقد عادت يا "دافيد" .. ولكن انتظر ..

فقلت وأنا اشعر باضطراب شديد:

- ماذا حدث؟ .. لماذا لم تحضر أمي لتستقبلني عند باب البيت؟ .. لا .. لا يمكن أن تكون قد ماتت .. أليس كذلك؟!

وقالت "بيجوتي":

- لا .. لم تمت .. وكان يجب علي أن أخبرك بهذا الأمر من قبل .. لقد أصبح لك الآن أب جديد! .. تعالى لتراه..!

وشحب لون وجهي .. وهي تتوجه بي صوب غرفة المعيشة .. وهناك تركتني..

وعند أحد جانبي المدفأة كانت تجلس أمي.. وعند الجانب الآخر، كان يجلس مستر "ماردستون"..!

4- وبدأت متاعبي

كانوا قد نقلوا حجرة نومي إلى حجرة أخرى.. وبمجرد أن رقدت على سريري، سحبت الغطاء فوق رأسي، واستغرقت في البكاء حتى أخذني النوم ..

واستيقظت على صوت يقول: ها هو!!.. وشعرت بيد تكشف الغطاء من فوق رأسي، ورأيت أمي و"بيجوتي" وقد جاءتا لترياني .. **وقالت أمي:**

- "دافيد" ما الحكاية ..؟

فقلت وأنا أدير وجهي عنها:

- لا شيء.

والتفتت أمي نحو "بيجوتي" وقالت لها بحدة:

- أنت التي أفسدته .. لقد حدثته بكلام ضدي..أوه يا "دافيد"، أيها الولد السيئ .. أوه يا "بيجوتي" .. أيتها المرأة السيئة .. هل أواجه كل متاعب ومصاعب العالم لمجرد أني تزوجت.. أليس من حقي أن أكون سعيدة..؟!

وهنا شعرت بيد تهزني .. لم تكن يد أمي ولا يد "بيجوتي" .. كانت يد مستر "ماردستون" الذى كان **يقول لأمي في نفس الوقت:**

- ما هذا يا عزيزتي "كلارا"؟! هل نسيت ما قلته لك؟.. يجب أن تكوني حازمة!!

فقالت أمي كما لو كانت تعتذر:

- أنا آسفة يا "ادوارد" .. يصعب علي أن أكون حازمة!

فهمس في أذنها ببضع كلمات .. وقد عرفت فيما بعد أنه مسيطر على أمي تماماً، ويستطيع أن يجعلها تفعل أي شيء يرغب فيه. **وقال لأمي بحزم:**

- أنزلي يا عزيزتي إلى الدور الأسفل ودعيني أنا و"دافيد" لكي نتفاهم سوياً..

وعندما خرجت أمي و"بيجوتي" من الحجرة، قال لي مستر "ماردستون":

- "دافيد" .. هل تعلم كيف أروض حصاناً .. أو كيف أجعل كلباً يطيعني..؟!
- لا .. لا أعرف!
- أني أضربه .. أني أقول لنفسي: سوف انتصر على هذا الحيوان.. سوف أضربه.. وأضرب بشدة كل جزء في جسده .. هل تفهم ما أقوله لك .. نعم.. يبدو أنك قد فهمت .. هيا .. اغسل وجهك وانزل معي إلى الدور الأسفل..!

وعندما وصلنا إلى غرفة المعيشة بالدور الأسفل، قال مستر ماردستون لأمي:

- كلارا يا عزيزتي .. لن تشعري بالمتاعب التي يسببها لك هذا الولد مرة أخرى.

وبعد أن تناولنا طعام العشاء في ذلك اليوم، توقفت أحد العربات جوار باب بيتنا.. ونزلت منها مس "ماردستون" .. أخت مستر "ماردستون" .. وكانت تحمل معها صندوقين أسودين لهما مقابض حديدية، وتضع نقودها في حقيبة صغيرة مصنوعة من الحديد.. لقد كانت امرأة حديدية!!

نظرت إلى شذرا .. وقالت وهي تسلم علي بيدها:

- إني لا أحب معظم الأولاد ..

وقال مستر "ماردستون":

- هذا ولد عديم الأخلاق!

وفي صباح اليوم التالي تجمعنا جميعاً حول مائدة الإفطار .. وسمعت مس "ماردستون" **تقول لأمي:**

- والآن يا "كلارا" .. لقد جئت لمساعدتك..إنك جميلة جداً.. وليست لديك أية فكرة عما استطيع أن أعمله من أجلك .. وإذا أعطيتيني جميع مفاتيح البيت فسوف أستطيع أن أتدبر جميع شئون هذا البيت من الآن فصاعدا..

وعلى الفور بدأت أمي في البكاء .. فقال لها مستر "ماردستون":

- "كلارا"! ..إني مندهش لذلك..!

فقالت أمي وهي تحاول أن تكفكف دمعها:

- إنك تتحدث عن "الحزم" وعن "الانضباط".. ولكنك تتناقض مع نفسك.. من المؤلم جداً أن أكون في بيتي، ولا .. ..

فقاطعها على الفور :

- "بيتي"! .. هل قلت "بيتي" ..؟!

فقالت أمي مستدركة وقد بدأ عليها الخوف:

- أقصد "بيتنا".. من المؤلم جداً أن أبدو غير قادرة على القيام بالإشراف على إدارة بيتنا .. أو عاجزة عن القيام بأعمال هذا البيت .. وإني على يقين من أننى كنت أدير هذا البيت إدارة حسنة قبل أن نتزوج .. اسأل "بيجوتي"..!

وهنا قالت أخته مس "ماردستون" بحزم:

- "إدوارد" .. سأرحل غداً!

فرد عليها أخوها بحزم أكثر:

- مس "جين ماردستون" .. ألزمي الصمت!!

وألتفت إلى أمي **وقال لها:**

- "كلارا".. عندما تزوجتك كنت أمل في أن أمنحك القدرة على الحزم والانضباط .. لأنك تحتاجين إلى ذلك .. وعندما تعطفت أختي "جين

ماردستون" وجاءت لتساعدني في ذلك .. فقد كنت أتوقع أن تشكريها على هذا العطف .. أما هذا الكلام الذي تقولينه .. فإنه يسبب ألمي ويغير مشاعري..

فقالت أمي وهي تبكي:

- أوه .. لا تقل مثل ذلك .. إني شاكرة لها.. ودعنا نصبح أصدقاء .. إنني لا أستطيع أعيش بين ناس لا يعطفون علي ..

وعندئذ التفت مستر ماردستون إلي وقال:

- "دافيد" هذا كلام لا يناسك.. غادر الغرفة فوراً..!

وأغرورقت عيناي بالدموع لدرجة كنت لا أستطيع معها رؤية الباب.

وهكذا تولت مس "ماردستون" كل شئون البيت.. وإذا حدث أن نطقت أمي بكلمة أو أبدت أية فكرة أو ملاحظة، فإن مس "ماردستون" كانت تفتح حقيبتها الحديدية على الفور، وتبدو كما لو كانت ستعيد المفاتيح .. وعندئذ كانت أمي تخاف وتلزم الصمت.

وكان من المفروض أن تقوم أمي بإعطائي الدروس .. ولكن مستر "ماردستون" وأخته يحضران دائماً ساعة الدرس .. وينتهزان هذه الفرصة لتلقين أمي دروساً في كيفية الحزم والانضباط..

في الماضي .. أي قبل أن تتزوج أمي .. كنت أتمتع بأوقات الدروس وأتعلمها بسهولة.. ولكن هذه الدروس أصبحت الآن – بحضور مستر "ماردستون" وأخته شيئاً يبعث الخوف والألم .. أصبحت محاكمة يومية مخزنة لي ولأمي..

وفي إحدى المرات .. تقدمت إلى أمي ومعي الكتاب .. وسلمته لها مفتوحاً لكي ترى كيف حفظت الدرس .. وبدأت في تلاوة الدرس بسرعة قبل أن

يطير من ذهني.. ولكني كنت مضطرباً بسبب حضور مستر "ماردستون" وأخته. لذلك فقد أخطأت في كلمة. وعندئذ نظر إلى "ماردستون" شذراً فأخطأت في كلمتين.. فنظرت إلى أخته مس "ماردستون" شذراً فنسيت على الفور على ست أو سبع كلمات .. وكانت أمي تحاول أن تساعدني ولكنها لم تجسر على فعل ذلك. **وقالت لي:**

- أوه يا "دافيد" ..

وهنا تدخل مستر "ماردستون" قائلاها:

- "كلارا" .. لابد أن تكوني حازمة ومنضبطة مع الولد .. لا تقولي له: أوه يا "دافيد" .. بل انظري للموضوع هكذا: هل حفظ هذا الولد درسه أم لا..؟

وقالت مس "ماردستون" على الفور:

- لا لم يحفظ درسه.

بينما **قالت أمي:**

- أخشى ألا يكون قد حفظه ..

فقالت مس "ماردستون":

- إذن أعيدي إليه الكتاب .. وقولي له أن يحفظ درسه جيداً.

فقالت أمي بارتياح:

- هذا ما كنت أنوي أن أعلمه بالفعل .. تعالى يا "دافيد" .. خذ الكتاب وحاول مرة ثانية .. ولا تكن غبياً..

وحاولت مرة أخرى .. ولكني فشلت فعمل مستر "ماردستون" حركة تدل على نفاذ الصبر وكذلك فعلت أخته .. بينما كانت أمي تحاول أن تحرك شفتيها لتساعدني **فشخطت فيها مس "ماردستون" صائحة:**

- "كلارا" ..!!

وعندئذ نهض مستر "ماردستون" من مقعده .. وأخذ الكتاب .. وضربني به على رأسي .. وألقى بي خارج الغرفة.

هكذا كنت أتلقى دروسي يوماً وراء يوم .. وحتى عندما كنت أحفظ الدروس جيداً .. كان مستر "ماردستون" وأخته يكلفاني بمزيد من الواجبات .. وكان لا يطيقان أن يرياني غير مكلف بواجب.

وهكذا تبددت سعادتي. وأصبحت كثيرا الصمت .. ومع ذلك فقد كانت سعادتي الوحيدة في الأوقات التي أقضيها متفحصاً الكتب التي تركها أبي. والتي عثرت عليها في حجرة مجاورة لحجرتي .. عثرت على "روبنسون كروزو"، وعلى كتب الرحلات والعديد من الكتب الأخرى .. وكانت هذه الأوقات هي العزاء الوحيد الذي يساعدني في الهروب من شقائي وتعاستي.

5- وضربني..

ذات صباح .. توجهت إلى غرفة المعيشة ومعي كتاب الدروس .. وكانت أمي تبدو قلقة .. وكانت مس "ماردستون" تبدو حازمة .. أما مستر "ماردستون" فكان يمسك في يده عصا غليظة.

والتفت مستر "ماردستون" إلى أمي **وقال لها:**

- لا تهتمي كثيراً بهذا الأمر يا "كلارا" .. فأنا نفسي ضربت كثيراً عندما كنت في مثل سنه.

وقالت "ماردستون" مؤمنة على كلامه:

- نعم .. هذا صحيح ..

فسألتها أمي:

- ولكن هل تعتقدين أن الضرب قد أصلح "ادوارد"..؟!

فردت عليها فوراً:

- وهل تعتقدين أن الضرب كان يؤلمه ..؟!

والتفت إلى مستر "ماردستون" وقال لي وهو يمسك بالعصا:

- والآن يا "دافيد" .. يجب أن تهتم بدروسك بقدر أكثر من المعتاد

وفي الحقيقة .. فقد أصبحت كارها لإجباري على تلقي دروسي بتلك الطرق المرعبة .. وكانت حالتي تزداد سوءاً.. وأصبحت غير قادر على التذكر.. ولاحظت أن أمي قد بدأت تبكي .. فنظرت إليها مس "ماردستون" **وشخطت فيها:**

- "كلارا"!.

فقالت أمي كما لو كانت تبرر موقفها:

- يبدو أني لست على ما يرام هذا اليوم ..!

فرد عليها مستر "ماردستون" قائلاً:

- "كلارا" .. يبدو أنك لست حازمة بقدر كاف لكي تتحملي المتاعب التي يسببها لك هذا الولد..

والتفت إلى وقال:

- "دافيد" .. لابد أن تصعد معي إلى الدور العلوي ..
- "كلارا" .. كم أنت غبية!
- أرجوك يا سيدي .. أتوسل إليك ألا تضربني .. لقد بذلت كل جهدي في حفظ دروسي .. ولكني القدرة على التعلم عندما تكون أنت ومس "ماردستون" بالقرب مني!

وعندما كان يقودني خارج باب الغرفة، اندفعت أمي نحوي، **ولكن مس "ماردستون" أمسكت بها وهددتها قائلة:**

وسمعت أمي وهي تبكي بشدة بينما كنت أصعد إلى الدور العلوي مع مستر "ماردستون". وعندئذ توسلت إليه وأنا أبكي:

وفجأة، أمسك برأسي ووضعها تحت ذراعه.. فاضطررت إلى أن أعض يده .. وعندئذ بدأ يضربني ضرباً مبرحاً كما لو كان يريد أن يقتلني.. وكانت هناك ضجة كبرى .. فكلما استمر في ضربي ..كنت أصرخ بأعلى صوتي.. وبرغم كل هذه الضجة سمعت أقدام أمي و"بيجوتي" وهما تصعدان درجات السلم وكانتا تبكيان وتصرخان بشدة.

وعندئذ توقف مستر "ماردستون" عن الضرب .. وخرج من الغرفة، وأغلق علي بابها..

وبعد فترة .. بدأت أهدأ .. وأخذت أتصنت، فلم أسمع في البيت صوتاً .. ونظرت إلى وجهي في المرآة .. كان أحمر ومتورما فشعرت بالخوف .. وازداد إحساسي بسوء حالتي .. واعتقدت إني قد ارتكبت شيئاً فظيعاً.. وأخذت أفكر فيما يا ترى سيفعلونه بي .. هل سيرسلوني إلى السجن..؟!

وشعرت بباب الغرفة وهو يفتح .. ودخلت مس "ماردستون" .. ووضعت على المائدة في بعض الخبز وقليلا من اللبن .. ونظرت إلى بحزم .. ثم خرجت وأغلقت الباب مرة أخرى ..

6ـ وأرسلوني إلى المدرسة:

واستيقظت صباح اليوم التالي نشطاً وسعيداً .. ولكن سرعان ما تذكرت تلك التجربة المؤلمة التي عانيتها وما زالت أعانيها .. وخيل إلى أنهم ينوون شنقي .. أو يفعلون بي أشياء أخرى لا أعرفها ..

وظللت سجيناً في تلك الغرفة لخمسة أيام متعاقبة .. مرت كما لو كانت سنوات طويلة .. وكنت أتصنت كل الأصوات التي تحدث في البيت .. وقع الأقدام .. وصوت الجرس عندما يدق .. وكل الأصوات الأخرى التي تحدث في الشارع..

وفي اليوم الأخير، سمعت صوتاً يهمس باسمي فاقتربت من الباب وقلت متلهفا:

- أهذه أنت يا عزيزتي "بيجوتي" ..؟
- نعم يا "دافيد" .. وتكلم بصوت منخفض حتى لا تسمعنا!

وكانت تقصد بذلك مس "ماردستون" بالطبع.. وسألتها بصوت منخفض:

- كيف حال أمي .. هل هي غاضبة مني..؟!

وسمعت نهنهة "بيجوتي" وهي تقول:

- لا .. ليست غاضبة..!
- وماذا سيفعلون بي يا عزيزتي "بيجوتي" .. هل تعرفين؟!
- نعم .. نعم .. سيرسلونك إلى مدرسة قرب **لندن**.
- متى يا "بيجوتي"..؟
- غداً ..!

ثم وضعت "بيجوتي" فمها قرب ثقب مفتاح الباب .. وهمست بحنان!

- عزيزي "دافيد" .. لقد مر وقت طويل دون أن أراك .. ولم يكن ذلك بسبب أني لا أحبك .. بل على العكس .. لقد امتنعت عن زيارتك لأن ذلك أفضل بالنسبة لك وبالنسبة لأمك .. فأنا أخشى غضب مستر "ماردستون" وأخته علينا جميعاً .. وربما سيأتي اليوم الذي ستعرف فيه أمك أني مخلصة لها وتعود من جديد لتضع رأسها فوق كتفي .. وأعدك بأني سأكتب لك يا عزيزي..

واختنقت كلماتها بعد أن بدأت في البكاء.. **فقلت لها** :

- شكرا لك يا عزيزتي "بيجوتي".. وهل يمكنك أن تكتبي إلى أخيك مستر "بيجوتي" وإلى "اميلي" الصغيرة لتطمئنيهم على حالي.. وإني لست في حالة سيئة كما قد يظنون .. وإني أرسل تحياتي وحبي لهم جميعا.. خصوصاً "اميلي" الصغيرة .. أرجوك أن تكتبي لهم بهذا ..!

ووعدتني "بيجوتي" بذلك...

وفي صباح اليوم التالي جاءت مس "ماردستون" وأخبرتني بأنهم قرروا إرسالي إلى المدرسة .. وعندما توجهت معها إلى مائدة الإفطار .. رأيت أمي جالسة وقد أحمرت عيناها من كثرة البكاء .. **ومع ذلك فقد قالت لي:**

- أوه يا "دافيد" .. حاول أن تكون ولداً طيباً..

لقد جعلوها تصدق إني ولد سيئ .. وحاولت أن أتناول طعامي .. ولكن دموعي تساقطت على الخبز والزبد.

وعندما وصلت العربة التي ستحملني إلى باب البيت، وضعوا فيها صندوقي .. ولم تحضر "بيجوتي" لتوديعي .. **وحضرت أمي ومعها مس "ماردستون" التي قالت لها بحزم:**

- "كلارا".. كوني حازمة!

فقالت أمي طائعة:

- حاضر يا عزيزتي "جين" .. وداعا يا "دافيد" .. أنت ذاهب لمصلحتك .. وداعا يا بني .. وسوف تعود إلى البيت في فترة الأجازة .. وكن ولداً طيباً أفضل من ذلك!.

وعندما أغرورقت عيناها بالدموع، صاحت فيها مس "ماردستون":

- "كلارا"..!

فقالت أمي:

- نعم يا عزيزتي "جين" .. ليرعاك الله يا "دافيد"..! وهنا أخذتني مس "ماردستون" وأجلستني في العربة .. وبدأ الحصان الكسول يتحرك ببطء..

الجـــزء الثانـــي
المـــدرســـة

7ـ في الطريق إلى المدرسة:

وظللت أبكي إلى أن ابتل منديلي تماماً من كثرة ما ذرفته من دموع .. وفجأة اوقف السائق العربة وتعجبت لماذا توقف .. ولكني رأيت "بيجوتي" وهي تقفز إلى داخل العربة وأخذت تقبلني...

وأعطتني بعض أكياس من الورق مملوءة بالكعك .. كما أعطتني كيساً صغيراً به بعض النقود .. ثم نزلت من العربة وأخذت تجري .. وعندئذ بدأت العربة في التحرك من جديد.

وبعد فترة توقفت عن البكاء .. ووضع السائق منديلي فوق ظهر الحصان ليجف.. وفتحت كيس النقود، فوجدت به ثلاثة شلنات لامعة براقة، كما وجدت ورقة صغيرة مكتوب فيها: إلى "دافيد".. مع حبي!

وسألت سائق العربة:

- هل سنظل هكذا حتى نصل إلى هناك..؟
- أين، هناك، هذه...
- هناك .. إلى **لندن**..
- إلى **لندن**؟ .. إن هذا الحصان سيموت قطعاً قبل أن يصل إلى نصف الطريق إلى هناك أننا فقط سنذهب فقط إلى **يارماوث** .. ومن هناك ستركب عربة سفر كبيرة ستأخذك إلى **لندن** ..

كانت هذه خطبة كبيرة وطويلة بالنسبة إلى مستر "باركيس" .. وهو اسم سائق العربة..

وأعطيته كعكة .. فوضعها في فمه وابتلعها مرة واحدة، وسألني بعد فترة:

- هل هي التي صنعت هذا الكعك..؟

فقلت له:

- هل تقصد "بيجوتي" يا سيدي؟ .. نعم هي التي صنعته .. وهي تقوم بكل أعمال المطبخ..

وأخذ مستر "باركيس" يحملق في أذني الحصان وهو مستغرق في التفكير، ثم **سألني:**

- هل لها زوج..؟
- لا يا سيدي .. إنها غير متزوجة.

وظل يحملق في أذني الحصان، ثم **قال مرة أخرى:**

- وهي التي تقوم بكل أعمال المطبخ ..؟
- نعم..
- أعتقد أنك ستكتب لها مستقبلاً..
- نعم سأكتب لها..

وعندئذ أدار مستر "باركيس" عينه نحوي ونظر إلي راجياً:

- عندما تكتب إليها .. قل لها إن "باركيس مستعد[1]".

فتساءلت دون أن أفهم قصده:

- "باركيس" مستعد؟.. هل هذه كل رسالتك..؟!

فقال بهدوء وببطء:

- نعم..
- ولكنك يا مستر "باركيس" ستمر ببيتنا غدا.. أليس من الافضل أن تبلغها رسالتك بنفسك..؟

---

[1] عبارة تعني أنه يعرض عليها الزواج به

فقال بهدوء مرة أخرى:

- أبلغها بأن "باركيس مستعد".. هذه هي كل رسالتي.

وعندما وصلنا إلى **يارماوث**، قالت السيدة التي تدير الحانة أن عشائي جاهز، واقتادتني إلى صالة واسعة، **وأحضر الخادم عشائي وهو يقول:**

- هذا عشاء به كمية من الطعام أكثر من حاجة ولد صغير .. هل تدعني أساعدك فيه .. دعنا نرى من يأكل أكثر من الآخر ..!

وبالطبع فقد أكل الخادم أكثر مني .. أكل كل العشاء تقريباً .. وطلبت منه أن يحضر لي بعض الأوراق لأكتب رسالة إلى "بيجوتي"، **وكتبت:**

(عزيزتي بيجوتي:

وصلت بالسلامة إلى **يارماوث** .. و "باركيس مستعد" .. أبلغي أمي بحبي. المخلص لك والذي يحبك كثيراً."

دافيد)

ملحوظة: هو يقول أنه حريص على أن تعرفي أن "باركيس مستعد".

وسألني الخادم:

- هل أنت ذاهب إلى المدرسة ..؟
- نعم ..
- وأين تقع هذه المدرسة ..؟
- بالقرب من لندن .. هذا كل ما أعرفه عنها.
- أوه.. إني أسف لذلك!

فقلت مندهشاً:

- لماذا..؟!

- إنها المدرسة التي يكسرون فيها ضلعين من صدر كل ولد!

ولم يسعدني هذا الكلام طبعاً..

وبعد فترة وصلت عربة السفر الكبيرة إلى باب الحانة الخارجي، وأوصلتني السيدة التي تدير الحانة إلى العربة **وهي تنظر إلي بدهشة وقالت:**

- هل التهمت كل طعام العشاء دون أن يساعدك حد.

ونادت على الخادم:

- "جورج" .. إن هذا الولد سينفجر من كثرة ما أكل..!

وتحركت عربة السفر وأخيراً وصلت إلى **لندن** في صباح اليوم التالي .. وهناك كان ينتظرني أحد المدرسين الذين يعملون في المدرسة، كان اسمه مستر "ميل"، وقلت له إني لم أتناول إفطاري.

فقال:

- سنشتري بعض الطعام .. وسوف أذهب لزيارة سيدة عجوز .. وستتناول طعام إفطارك عندها.

ومشينا مسافة قصيرة إلى أن وصلنا إلى أحد ملاجئ الفقراء والعجزة التي يبنيها بعض الأغنياء المحسنين لإيواء المعوزين من الناس، ودخلت مع مستر "ميل" إلى داخل الملجأ، وسمعت صوت سيدة عجوز تناديه:

- **عزيزي "شارلي"**

وعرفت أنها أم مستر "ميل"..

وبعد أن تناولنا إفطارنا سوياً قالت السيدة العجوز لأبنها:

- هل أحضرت صفارتك يا شارلي؟

وأخرج مستر "ميل" صفارته وبدأ يعزف لحنا وكان أسوأ عزف سمعته في حياتي..

وبعد أن خرجنا من الملجأ.. ركبنا عربة سفر أخرى أوصلتنا إلى **بلاكهيث**.

ثم سرنا مسافة طويلة حتى وصلنا إلى بيت مبني من الطوب وله باب علقت عليه لافتة مكتوب عليها "**سالم هاوس**".

وفتح الباب، وظهر رجل له ساق خشبية.

وقال له المدرس:

- هذا هو الولد الجديد.

كان "**سالم هاوس**" هذه عبارة عن مبنى مربع الشكل له مظهر حزين.. وقادني هذا الرجل إلى أحد الفصول .. وهو مكان محزن وفارغ تماماً وليس فيه أحد غيري، وكانت هناك ثلاث صفوف طويلة من مقاعد التلاميذ .. وقصاصات كثيرة من الورق متناثرة على الأرض .. وكانت الجدران كلها ملوثة بالحبر كما لو كان السقف قد أمطر حبراً .. وكانت رائحته كريهة لا تطاق.

وفي ذلك الفصل قضيت عدة أيام وحيداً..ولم أكن أرى أحد سوى مستر "ميل"، فالأولاد لم يعودوا بعد من الأجازة، كما أن مستر "كريكل" ناظر المدرسة ما زال يقضي عطلته بعيداً على شاطئ البحر.

وكنت أتناول وجباتي مع مستر "ميل" في صالة الطعام الواسعة الخالية. ثم نعود إلى الفصل.. وينهمك هو في الكتابة لفترة طويلة وعندما كان ينتهي من ذلك كان يخرج صفارته ويبدأ في عزف الألحان الحزينة.

أما أنا .. فكنت أقضي وقت في القراءة ... أو في الاستماع إلى تلك الألحان الحزينة.. وعندما كنت أتوجه للنوم كل مساء. كنت أجهد نفسي بالبكاء حتى أتمكن من النوم وحدي في تلك الحجرة الكبيرة الواسعة المملوءة بالأسرة الخالية..

8ـ وقابلت العديد من الناس:

وأخذ الرجل ذو الساق الخشبية ينظف جميع الأركان بمبنى المدرسة، وعلمت أن ناظر المدرسة مستر "كريكل" سيصل في المساء، وقبل أن يحل موعد نومي بقليل، استدعاني الرجل ذو الساق الخشبية لمقابلة الناظر.

كان مستر "كريكل" بديناً، وكان يجلس في حجرة على مقعد ذي مساند جانبية. وكانت زوجته مسز "كريكل" وابنته مس "كريكل" موجودتين بالحجرة وبمجرد دخولي **قال الناظر**:

- ها .. هو الجنتلمان الصغير الذي يعض .. لقد أخبرني مستر "ماردستون" بأنك تعض .. أنا أعرف مستر "ماردستون" جيداً .. إنه رجل قوي الشخصية .. وأنا أيضاً قوي الشخصية .. وعندما أقول إني سأفعل شيئاً ما فلابد أن أفعله..!

وشعرت بخوف شديد ..

وفي صباح اليوم التالي، وصل مدرس آخر اسمه مستر "شارب"، وكان "تومي ترادلز" أول العائدين من الإجازة من تلاميذ المدرسة. ثم وصل بعد ذلك أولاد آخرون.

وعندما وصل "ج. ستيرفورث." أخذوني إليه كما لو كانوا يأخذونني إلى القاضي .. كان جالساً تحت دروة في فناء الملعب .. وهو أكبر الأولاد سناً ولذلك فقد كانوا يعتبرونه رئيسهم، وكان يتمتع بذكاء خارق ومنظر حسن.

سألني "ستيرفورث":

- كم معك من النقود ..؟!

فقلت له على الفور:

- سبع شلنات.
- إذن أعطهم لي .. سوف أحفظ هذه النقود من أجلك.

وأعطيته النقود، **فقال**:

- ربما توافق على صرف بعض هذه النقود للاشتراك في شراء وليمة سنأكلها في حجرة النوم..

فوافقت..

وفي تلك الليلة انعقدت الوليمة في حجرة النوم.. وجلسنا جميعاً نتسامر ونتحدث في همس وعلمت الكثير من أخبار المدرسة وأسرارها.

علمت أن مستر "كريكل" ناظر المدرسة يضرب الأولاد بشدة وباستمرار .. وأنه لا يعرف شيئاً.. وإنه كان صاحب متجر صغير قبل أن يبدأ مشروع هذه المدرسة.. وعلمت أنه لا يجسر إطلاقاً على ضرب "ج. ستيرفورث".

وعلمت أيضاً أن المدرسين مستر "شارب" ومستر "ميل" لا يحصلان إلا على أجر قليل .. كما علمت أن مسز "كريكل" زوجة الناظر معجبة جداً "بستيرفورث".

وأخيراً **قال لي ستيرفورث**:

- تصبح على خير يا "كوبرفيلد" الصغير .. سوف أرعاك واعتني بك!

فقلت له:

- شكرا لك .. أنك شديد العطف!

9- العام الدراسي الأول في سالم هاوس

بدأت الدراسة في اليوم التالي. وما زالت أذكر الضجة الشديدة الصاخبة التي كانت تحدث في حجرة الدراسة، والسكون والصمت المفاجئ عند ظهور مستر "كريكل".

ويبدو أن مستر "كريكل" كان يجد متعته الخاصة في ضرب الأولاد .. وكان يضرب "ترادلز" أكثر من كل الأولاد الآخرين.

وواصل "ستيرفورث" حمايته لي.. وكنت أحكي له ما أعرفه من القصص في كل مساء، وكان يساعدني في مذاكرة دروسي .. وكذلك كان مستر "ميل" يساعدني في المذاكرة، وشعرت بأنه يحبني ويعطف علي أكثر من الأولاد الآخرين.

وكنت أتألم بشدة من المعاملة السيئة التي يمارسها "ستيرفورث" ضد مستر "ميل".. فقد كان يعامله بدون احترام، ويفعل كل شيء يؤذي مشاعره ويجرح إحساساته.. وكان يحرض الأولاد الآخرين ويشجعهم على السخرية به.

وشعرت بأني أخطأت خطأ كبيراً حين أخبرت "ستيرفورث" بأن أم مستر "ميل" سيدة عجوز تعيش في ملجأ للفقراء والعجزة.. فقد كنت أخشى أن يشيع "ستيرفورث" هذا الخبر بين الأولاد الآخرين لزيادة السخرية بمستر "ميل" وجرح مشاعره..

وهكذا مرت أيام الدراسة يوماً وراء يوم ..إلى أن جاء يوم سأظل أذكره طول حياتي.

كان يوم سبت .. وقد أجبرنا المطر المنهمر إلى قضاء فترة بعد الظهر بداخل حجرة الدراسة، وكان مستر "شارب" قد انصرف، وبقى معنا مستر "ميل".

كان الأولاد يحدثون ضجيجاً وصخباً أكبر من المعتاد .. كانوا يجرون ويتقافزون هنا وهناك.. ويضحكون.. ويصرخون.. ويغنون.. ويرقصون.. ثم

أخذوا يتحلقون حول مستر "ميل" ويبحلقون بأعينهم فيه .. ويخرجون ألسنتهم له .. ويسخرون من ملابسه الفقيرة الرثة .. ومن حذائه البالي المثقوب .. ومن أمه..

كان هذا شيئاً فظيعاً ومؤلماً.. وكان الأولاد يدورون حوله كما تدور الكلاب حول حيوان جريح، ومع ذلك، فقد ظل مستر "ميل" جالساً في سكون وقد أسند رأسه على يده محاولاً القراءة في كتاب .. أو لعله كان يتظاهر بأنه منهمك في القراءة.

ولكن فجأة قفز مستر "ميل" من مقعده وهب واقفاً وأخذ يصيح:

- اسكتوا جميعاً .. ما هذا الذي تفعلون.. ما معناه .. من المستحيل أن أتحمل ذلك .. أنكم تدفعونني إلى الجنون .. كيف تجرؤون على فعل ذلك يا أولاد؟!

وألقى بالكتاب بعنف فوق مكتبه ..

وحل الصمت عندما توقف بعض الأولاد عن الاستمرار في تلك السخرية المريرة .. ولكن "ستيرفورث" وقف في آخر الفصل وأخذ يصفر

فقال مستر ميل:

- اسكت يا "ستيرفورث"!

ولكن ستيرفورث **قال:**

- اسكت أنت!
- اجلس!
- اجلس أنت!!

وضحك الكثير من الأولاد .. وشحب لونه وجه مستر "ميل" وهو يقول:

- لقد رأيتك وأنت تحرض الأولاد ضدي وتحثهم على السخرية بي .. أنك الولد المفضل لدى الناظر.. وأنت تستغل هذا المركز لتسخر وتشتم وتسب سيداً مثلي ..

فقال "ستيرفورث" على الفور:

- سيداً؟! هل تظن نفسك سيداً؟! .. أنك مجرد شحاذ!!

وخيل لي أن "ستيرفورث" كان ينوي ضرب مستر "ميل" .. أو أن مستر "ميل" كان ينوي ضرب "ستيرفورث".. وفجأة دخل مستر "كريكل" إلى الحجرة وصاح:

- ما هذا الذي يحدث..؟

فقال "ستيرفورث":

- كان يقول إني الولد المفضل لدى الناظر..

وقال مستر "ميل":

- إنه يستغل مركزه هذا ويسبني ..

فقال "ستيرفورث":

- لقد وصفته بأنه شحاذ .. وهو بالفعل شحاذ .. وابن شحاذة .. إن أمه تعيش في ملجأ للفقراء والعجزة!

ونظر مستر ميل نحوي .. وأسند يده على كتفي .. وهنا قال مستر "كريكل":

- والآن يا مستر "ميل" .. إذا سمعت .. إن عليك أن تثبت لنا جميعاً أن ما قاله "ستيرفورث" غير صحيح.

فقال مستر "ميل" بانكسار:

- لا .. أنه على صواب .. لقد قال الحقيقة!

وعندئذ قال مستر "كريكل" قراره:

- أعتقد أنك أخطأت الطريق عندما جئت للعمل في مدرستنا .. وكان يجب أن تعمل في مدرسة للشحاذين.. أنت مفصول .. وعليك أن تغادر المدرسة.

فقال مستر "ميل" وهو ينصرف:

- "ستيرفورث" .. أتمنى أن يأتي يوم تندم فيه وتحس بالعار مما فعلته معي في هذا اليوم.

وجمع مستر "ميل" كتبه وصفارته وخرج ..

وهنا قال "ترادلز" لـ"ستيرفورث":

- أنت الذي شتمته .. وتسببت أيضاً في فصله من العمل!

ومع ذلك فقد كان "ستيرفورث" محل أعجاب معظم الأولاد.

وفي ظهر أحد الأيام .. أخبروني بأن زوار جاءوا ويريدون مقابلتي وفوجئت بوجود مستر "بيجوتي" و"هام". وقد جاءو لزيارتي. **وقال مستر "بيجوتي" عندما رآني:**

- لقد نضجت وأصبحت كبيراً..

وسألته:

- كيف حال أمي .. وكيف حال "اميلي" الصغير ومسز "جاميدج".
- هم جميعاً بخير وفي أحسن حال .. لقد أحضرت لك بعض القواقع والمحار..

وعندما دخل "ستيرفورث" إلى الحجرة قلت له:

- تعال لأعرفك بأصدقائي .. هذان صديقان من **يارماوث** ويعملان في القوارب.

فقال "ستيرفورث":

- إني سعيد برؤيتكما.

وقلت:

- هل يمكن أن أصحب "ستيرفورث" معي عند زيارتكم في **يارماوث** لكي يرى بيتكم .. إنه بيت مصنوع من قارب كبير يا "سيترفورث"!

فقال مستر "بيجوتي":

- أن بيتي ليس فرجة .. ولكني أرحب بكما بكل سرور في هذا البيت..

وهكذا مرت أيام الدراسة .. كل يوم منها كان يشبه ما سبقه وما يليه من أيام .. وانتهى العام الدراسي أخيراً..

وما زلت إلى الآن أذكر رحلتي إلى **يارماوث** في عربة السفر..

10ـ أيام الأجازة

ومن **يارماوث** .. ركبت عرفة السفر الصغيرة التي يقودها مستر "باركيس". **وقلت له:**

- تبدو في حالة جيدة يا مستر "باركيس" .. لقد أرسلت رسالتك

فقال بهدوء:

- ولكني لم استلم حتى الآن رداً .. ومازلت انتظر.

فسألته:

- وهل حدثتها في ذلك..؟
- لا .. وعليك أن تحادثها أنت في هذا الموضوع.. قل لها: بيجوتي.. باركيس مازال ينتظر ردك .. فإذا سألتك ردي علي ماذا فقل لها أن "باركيس مستعد"!

ثم سألني بعد لحظة:

- قل لي .. ما هو اسمها الأول؟

فقلت له:

- "كلارا" .. اسمها "كلارا بيجوتي"!

وكتب مستر "باركيس" هذا الاسم على أحد جانبي العربة.

وعندما وصلنا إلى البيت .. توقفت العربة أمام البوابة الخارجية .. وانزل مستر باركيس صندوق حاجياتي وتركني .. وسرت تجاه الباب، واتجهت مسرعاً نحو غرفة المعيشة.. وهناك رأيت أمي جالسة وتحمل على ذراعيها طفلاً رضيعاً..!

ناديت عليها، فهبت واقفة. واتجهت نحوي وقبلتني وهي تقول:

- هذا أخوك يا "دافيد" .. يا ولدي العزيز.. يا ولدي المسكين!

وجاءت "بيجوتي" مسرعة واحتضنتني .. وكان مستر "ماردستون" وأخته مس "ماردستون" خارج البيت .. لذلك فقد جلسنا نحن الثلاثة نتناول عشاءنا جوار المدفأة. وعندما أخبرت "بيجوتي" بما قاله مستر "باركيس". أخذت تضحك .. وهنا **تساءلت أمي**:

- عما تتحدثان..؟

فقالت "بيجوتي":

- عن رجل غبي يريد أن يتزوجني!

وقالت أمي:

- سيكون هذا زواجاً مناسبا.

وقالت "بيجوتي":

- لا لن أتزوجه حتى ولو كان مصنوعاً كله من الذهب الخالص .. قل له يا "دافيد": أنك لم تتكلم معه من قبل .. وقل له أنه إذا حاول أن يكلمني فسوف أصفعه على وجهه!

وعندما انتهينا من تناول العشاء، جلسنا قرب نار المدفأة، وقالت أمي **متسائلة**:

- بيجوتي .. هل حقاً تريدين أن تتزوجي..؟!
- أنا؟ .. أنا لن أتزوج إطلاقاً..
- لا تتركيني يا بيجوتي .. وأبقي جواري فأنا بحاجة إليك .. إني أشعر بقرب النهاية ..
- أتركك .. هل هذا معقول.. سأبقى معك إلى أن أصبح سيدة عجوزاً لا أصلح لشيء..

وأخذت أحكي لها ما رأيته وسمعته من حكايات المدرسة .. ولكن "بيجوتي" قالت فجأة وكأنها تذكرت شيئاً هاماً:

- إني أتعجب .. ما هي أخبار عمة "دافيد الكبرى" .. مس "بيتسي تروتوود"..؟!

فقالت أمي:

- أعتقد إنها ما زالت تعيش في كوخها قرب البحر .. ويبدو أنها لم تعد راغبة في مضايقتنا.
- ربما ستغفر الآن لـ"دافيد" حكاية أنه ولد ولم يكن بنتاً كما كانت تريد .. خصوصاً بعد أن أصبح لـ"دافيد" أخاً آخر..

وعندئذ بدأت أمي في البكاء، **وقالت لـ"بيجوتي" بصوت حزين:**

- لماذا تفكرين بإرسال "دافيد" إلى عمته الكبرى مس "تروتوود" .. لمجرد إني ولدت له أخاً ..؟

وبدأ شجار عاصف بين أمي و"بيجوتي"، ولكنهما تصالحتا في النهاية وغفرت كل منهما للأخرى.. وقالت أمي أن "بيجوتي" هي صديقتها الحقيقية المخلصة.

وسمعنا صوت عجلات إحدى العربات وهي تتوقف عند باب البيت .. لقد وصل مستر "ماردستون" وأخته.. وعندما مد يده ليصافحني.. نفس اليد التي عضضتها حين ضربني .. رأيت علامة حمراء مكان العضة..

وعندما كنت أحيي مس "ماردستون" وأصافحها بيدي سألتني:

- ما هي مدة الأجازة؟

فقلت لها:

- مدتها شهر واحد ..

وأحضرت مس "ماردستون" ورقة وقلماً، وكتبت أيام هذا الشهر يوماً يوماً .. وفي كل صباح كانت تشطب على كل يوم يمر ..

لم تكن أجازة سعيدة بأي حال .. وكان من الواضح تماماً أن مستر "ماردستون" وأخته لا يطيقاني .. وفي حضورهما كانت أمي تخشى أن تبدر منها أية بادرة عطف نحوي .. وكانت تخشى أن أقول كلمة أو أفعل شيئاً يسبب المتاعب.

ولهذا فقد عزلت نفسي في حجرة نومي.. وكنت أقضي وقتي في القراءة .. أو في الجلوس في المطبخ مع "بيجوتي" .. وعندما يكون مستر "ماردستون" وأخته موجودين .. كنت ألزم الصمت تماماً ولا أنبس بكلمة..

وقال مستر "ماردستون" إني ذو شخصية انعزالية كئيبة، ثم أضاف:

- وعليك أن تغير تلك الشخصية .. أنك تتجنب الجلوس معنا في غرفة المعيشة .. وتفر منا كما لو كنا مصابين بأمراض خطيرة..

ولذلك فقد اضطررت أن أجلس صامتاً وحزيناً في غرفة المعيشة يوماً وراء يوم.. وكنت أتمنى حلول المساء حتى أتمكن من مغادرة الغرفة والتوجه إلى غرفة نومي لأبقى وحيداً .. وبعيداً!

وأخيراً انتهت أيام الاجازة .. وقالت مس "ماردستون" وهي تشطب آخر خانة في ورقتها:

- ها هو اليوم الأخير..!

ووصلت عربة مستر "باركيس" إلى باب البيت .. ووضعت فيها صناديقي .. وعندما قبلتني أمي.. **قالت لها مس "ماردستون"**:

- "كلارا"! .. كوني حازمة!!

وتحركت العربة ببطء. .

وعندما التفت خلفي .. رأيت أمي ما زالت واقفة عند باب البيت حاملة على ذراعيها طفلها الرضيع..

وكانت هذه آخر مرة .. أرى فيها أمي على قيد الحياة..!

11- وفقدت أمي ..

وبعد شهرين من عودتي إلى **سالم هاوس** دخل مستر "شارب" إلى حجرة الدراسة، وطلب مني أن أذهب لمقابلة الناظر مستر "كريكل".. واعتقدت أن هدية وصلتني من "بيجوتي".

كان مستر "كريكل" يتناول طعام إفطاره وبجواره تجلس زوجته وفي يدها خطاب مفتوح وطلبت مني مسز "كريكل" أن أجلس فجلست، وقامت من مقعدها وجلست بجواري، **وقالت:**

- هناك شيء أريد أن أخبرك به يا بني .. إن أمك مريضة جداً ..!

بكيت فوراً وانهمرت دموعي .. ثم قالت مسز "كريكل":

- كان مرضها خطيراً للغاية ..

وتوقعت كلماتها التالية:

- لقد ماتت!

وبعد ظهر اليوم التالي غادرت **سالم هاوس** وعندما وصلت إلى **يارماوث** لاستقل عربة مستر "باركيس" لاحظت أن مستر "باركيس" غير موجود.. وأن شاب بديناً أحمر الوجه قد حل محله..

واستقبلتني "بيجوتي" عند الباب .. ودخلت بي إلى البيت وهي تبكي وتتحدث في همس كما لو كانت تخشى أن توقظ سيدتها التي ماتت.

وفي غرفة المعيشة كان مستر "ماردستون" جالساً يبكي .. بينما انهمكت أخته في الكتابة على بعض الأوراق.

وحضرنا جميعاً دفن أمي.. ووقفنا طويلاً عند قبرها..

وفي مساء ذلك اليوم .. جاءت "بيجوتي" إلى حجرة نومي وجلست بجوار سريري. **وقالت:**

- لم تعد صحتها في حالة جيدة منذ مدة طويلة.. ولم تكن سعيدة في حياتها .. كانت تغني لطفلها الرضيع بنعومة وحزن .. وكانت خائفة بصفة مستمرة. بل وكان خوفها يزداد يوماً بعد يوم .. وكانت بعض الكلمات القاسية التي توجه إليها أحياناً مثل الضربات الشديدة .. وفي إحدى الليالي استدعتني **وقالت لي:**
- "بيجوتي" يا عزيزتي .. إني أعتقد بأني في طريقي إلى الموت .. لقد تعبت تماماً من حياتي.. ولو كان الموت مثل النوم .. فأبقي بجواري حتى أنام.. ضعي يدك تحت رأسي وأديري وجهي نحوك .. إن وجهك يبدو بعيداً بعيدا .. وأنا أريده بقربي..

وماتت .. كما لو كانت طفلاً صغيراً تسلل النوم إلى عينيه ..

12- بيجوتي تتزوج:

وبعد فترة قصيرة من دفن أمي في قبرها.. قامت مس "ماردستون" باستدعاء "بيجوتي"، وأخبرتها بأنها لم تعد في حاجة إلى خدماتها، وأن عليها أن تغادر البيت.

وقررت "بيجوتي" أن تذهب لتعيش في بيت أخيها حتى تلتحق بعمل آخر مناسب، وقالت لي "بيجوتي" وهي تشرح الموضوع:

- والآن اعتقد أن مستر "ماردستون" وأخته لا يريدانك معهما في الوقت الحاضر.. واعتقد سيسمحان لك أن تذهب معي..

وبالفعل وافقت مس "ماردستون" على ذهابي مع "بيجوتي"..

وعندما وصلت عربة "باركيس".. وضعنا فيها صناديقنا .. وطوال الطريق كان مستر "باركيس" يتصرف بأدب بالغ .. ولم يتكلم سوى كلمات قليلة وعندما وصلنا إلى نهاية الرحلة في **يارماوث، انتحى بي جانباً وسألني:**

- هل تعلم من هو المستعد؟ .."باركيس مستعد"..!!

وبينما كنا نتوجه في الطريق إلى بيت أخيها **سألتني "بيجوتي"**:

- "دافيد" يا عزيزي .. ماذا تقول إذا أنا قبلت الزواج منه؟
- من مستر "باركيس"؟.. أعتقد أن هذا سيكون أفضل شيء .. فسوف يكون لديك في هذه الحالة عربة وحصان .. وتستطيعين دائماً أن تحضري لزيارتي..

ومرت الأيام في بيت مستر "بيجوتي" .. أيام متماثلة كغيرها من الأيام التي مضت.. ولكن لم نعد- أنا و"اميلي" الصغيرة – نتمشى ونمرح على الرمال ..فقد انشغلت الآن بمذاكرة دروسها بالإضافة إلى ما كانت تؤديه من أعمال البيت ..

ولا شك في أنها كانت تحبني .. وتضحك لي وتداعبني دائماً.. لقد نضجت الآن ولم تعد طفلة صغيرة كما كانت من قبل ..

وكان مستر "باركيس" يحضر كل مساء حاملاً معه هدية لـ"بيجوتي" .. بعض الفواكه.. أو طير في قفص.. أو قطعة من اللحم .. أو أشياء أخرى غريبة.

وكان يأخذ "بيجوتي" للنزهة في بعض الأحيان. وحينما كانت تعود من تلك النزهات كانت تضحك وتضحك..

وفي إحدى المرات صحبنا مستر "باركيس" –أنا و"اميلي" و"بيجوتي" – في عربته .. وعندما وصلنا إلى الكنيسة توجه هو و"بيجوتي" إلى الداخل وتركنا وحدنا بالعربة.

وبعد فترة خرجا من الكنيسة .. **وسألني مستر "باركيس"**:

- هل تذكر الاسم الذي كتبته على جانب العربة.. لقد كان "كلارا بيجوتي" .. لقد تغير هذا الاسم الآن: "كلارا باركيس"..!!

الجزء الثالث
الشـــــــــباب

13- وخرجت إلى العالم:

حان الوقت بعد ذلك لكي أعود إلى البيت.. وأخذني "باركيس" في عربته .. وكانت "بيجوتي" تركب معنا .. وعندما وصلنا، أنزلاني أمام البوابة وتركاني وحدي.. وأخذتني الدهشة حين رأيت العربة تمضي في طريقها أخذة معها، "بيجوتي" دون أن تنزل معي..

وهكذا بدأت أكثر الفترات ظلاماً وشقاء في تاريخ حياتي .. فقد كان مستر "ماردستون" يكرهني ولا يطيقني.. وكذلك كانت أخته .. فلم يتحدثا معي على الإطلاق .. وعشت كالغريب في بيتي .. وأصبحت أفضل أن أعيش في أية مدرسة مهما كانت صعبة الظروف والأحوال، فهذا أفضل بكثير من الحياة بمثل هذا الشكل.

وكانت "بيجوتي" تحضر لزيارتي كل أسبوع.. وكنت أقضي وقتي كله بين كتب القصص والروايات.. وكنت اعتبر هذه الكتب خير أصدقائي.

وفي أحد الأيام وصل إلى البيت رجل اسمه مستر "كوينيون"، واستدعاني مستر "ماردستون" إلى غرفة الجلوس وقال:

- هذا مستر "كوينيون" .. الموظف بشركة "ماردستون" وشركاه بلندن .. ستذهب لتعمل معه في مكتبه بالشركة .. وستعيش هناك في غرفة مستأجرة بمنزل أحد الأشخاص.

وهكذا وجدت نفسي في النهاية جالساً جنباً إلى جنب مستر "كوينيون" في العربة المسافرة إلى **لندن**.. وأنا لم أزل ولداً صغيراً .. يخرج وحيداً إلى العالم..

14ـ بداية العمل:

وكان يعمل في المكتب ثلاثة أولاد آخرون .. لم أتجاوب معهم، وشعرت بقدر كبير من التعاسة.. وفي هذا اليوم الأول للعمل في هذا المكتب، ظللنا نعمل حتى الساعة الثانية عشرة ظهراً، واستدعاني مستر "كوينيون" إلى حجرة مكتبه، وهناك رأيت رجلاً بديناً يرتدي معطفاً بني اللون، وكان اسمه مستر "ميكاوبر".

قال مستر "كوينيون":

- هذا هو الغلام ..

فقال مستر "ميكاوبر" باهتمام ووقار وأدب:

- أذن هذا هو مستر "كوبرفيلد"؟ أرجو أن تكون في خير حال يا مستر "كوبرفيلد"..!

شكرته .. وتمنيت له نفس الشيء. فقال بنفس الطريقة الوقورة المؤدبة..

- شكراً لله .. أنا في حالة طيبة .. لقد تلقيت خطاباً من مستر "ماردستون" يطلب مني فيه أن أستضيفك في منزلي .. وستسكن في إحدى الغرف التي لا احتاجها في الوقت الحالي.

وقال مستر "كوينيون":

- لقد استأجرنا لك غرفة في بيت مستر "ميكاوبر".

وقال مستر "ميكاوبر":

- عنواني هو: وندسور هاوس، سيتي رود "وباختصار" فأنا أعيش هناك.

وقد لاحظت منذ البداية أن مستر "ميكاوبر" كان يقول العديد من الكلمات بأسلوب معقد قليلاً ثم يقول كلمة "باختصار" ويقول نفس الكلمات بطريقة سهلة مختصرة .. كانت هذه هي طريقته المعتادة في الحديث. وبهذه الطريقة **قال لي مستر "ميكاوبر":**

- أعتقد أنك لم تتعرف حتى الآن على شوارع هذه المدينة الكبرى .. ومن المتوقع أنك ستجد صعوبة وعناء حتى تكتشف البيت الذي أعيش في .. وبالاختصار.. سوف تفقد طريقك وتتوه ولهذا فسوف أحضر في المساء لأصحبك معي لأريك الطريق إلى هذا البيت.

وارتدى مستر "ميكاوبر" قبعته وغادر المكتب.

وعند حلول المساء، عاد مرة أخرى ليأخذني معه إلى بيته. وهناك رأيت زوجته مسز "ميكاوبر" وأبناءه الأربعة. **وقالت لي مسز "ميكاوبر"**:

- لم أكن أظن مطلقاً حين كنت أعيش في بيت أمي وأبي .. أن يوماً ما سيأتي واضطر فيه لتأجير إحدى الغرف في بيتي ليعيش فيها أحد الغرباء، ولكن مستر "ميكاوبر" يعاني من بعض الصعوبات المالية ..ولا يترك له دائنوه فرصة من الوقت حتى يتمكن من رد ديونهم ..

كانت مسز "ميكاوبر" مسكينة حقاً .. وكانت تبذل كل ما في وسعها لمعاونة زوجها في تلك الأزمة. فقد علقت على باب بيتها لافتة **كتبت عليها**:

"مدرسة مسز "ميكاوبر" لتعليم الفتيات" .. ومع ذلك فلم تحضر إلى البيت فتاة واحدة .. والذين كانوا يحضرون إلى البيت وهم بعض الدائنين الذين كانوا يصرخون في وجه مستر "ميكاوبر" ويطالبونه برد ديونهم..

وكان هناك مجموعة أخرى من الدائنين يصرخون ويهددون مستر "ميكاوبر" حين كان يسير في الشارع .. ومجموعة ثالثة يطلقون تهديداتهم وصراخهم وهم يقفون تحت نوافذ البيت ..

وحينئذ كان مستر "ميكاوبر" يشعر بمنتهى التعاسة ويقول أنه يجب أن يقتل نفسه وينتحر ليتخلص من كل ذلك .. ولكن بعد مرور أقل من نصف

ساعة، كان ويالللغرابة! – يشرع في تنظيف حذائه، ويخرج من البيت وهو يغني أغنية مرحة ويشعر بسعادة غامرة.

وكانت مسز "ميكاوبر" على شاكلته. ففي الساعة السادسة مثلاً، أراها راقدة على الأرض وهي تبكي.. ولكن قبل مرور أقل من ساعة. كنت أراها في قمة البهجة والسرور .. وتحكي لي الكثير من القصص عن أمها وأبيها .. وعن البيت الذي كانت تعيش فيه قبل أن تتزوج.

وفي إحدى الأمسيات عاد مستر "ميكاوبر" إلى البيت حزيناً، وأخذ يبكي عندما بدأ في تناول عشائه، وقال أن الأمور قد تأزمت ولم يعد باقياً سوى أن يرسله دائنوه إلى السجن بسبب عجزه عن سداد ديونهم ..

ولكن عندما انتهى مستر "ميكاوبر" من تناوله عشائه، أخذ يغني أغنية مرحة .. وقبل أن يتوجه إلى سريره للنوم، أخذ يحسب تكاليف عمل نوافذ كبيرة للبيت بدلا من تلك النوافذ الضيقة .. وذلك عندما تتحسن الأحوال..

ولكن الأحوال لم تتحسن، بل وأخذ الزوجان يبيعان بعض الأشياء من بيتهما للحصول على الطعام، ولكنهما كان لا يجسران على الخروج من البيت ومعهما أي شيء يريدان بيعه، فقد كان الدائنون يتربصون بهما ويراقبونهما لمنعهما من بيع أي شيء من حاجيات البيت.

ولذلك فقد كنت أتولى هذا الموضوع نيابة عنهما.. كنت أخرج من البيت ومعي بعض الكتب أو بعض قطع الفضيات .. أخبئها في جيوبي تحت معطفي، وأذهب لبيعها وأعود سريعاً لأعطيهما الثمن..

وأخيراً جاءت النهاية .. وطلب الدائنون إدخال مستر "ميكاوبر" إلى السجن[1]، وفي تلك الليلة زرته بالسجن وتناولت معه طعام العشاء. ثم عدت إلى مسز "ميكاوبر" لأواسيها.

---

[1] كان هناك قانون في انجلترا يقضي بسجن المدنيين الذين يعجزون من سداد ديونهم، وفي مثل هذه الحالة كان يجوز للسجين أن يصحب معه أسرته إلى السجن حتى تجد طعامها.

وفوجئت بأن الدائنين قد أخذوا كل أثاث البيت ولم يتركوا سوى منضدة وبضع مقاعد قليلة. وقد عشنا بعض الأيام وسط هذه البقايا البائسة، إلى أن اضطرت مسز "ميكاوبر" إلى أن تذهب مع أبناؤها- لتعيش مع زوجها في سجنه، واضطررت أنا بالتالي إلى مغادرة البيت، وعشت في حجرة أخرى في مكان قريب من السجن، وقد أعتدت على زيارة مستر "ميكاوبر" وأسرته في السجن كل مساء.

وبعد فترة أطلق سراحهم، فخرجوا من السجن وجاءوا ليعيشوا معي حيث كنت أعيش. ثم قرروا الرحيل إلى مدينة **بلايموث**، وفي مساء يوم الأحد السابق لهذا الرحيل، تناولنا جميعاً طعام العشاء معاً. وألقى مستر "ميكاوبر" خطبة **قال فيها:**

- يا صديقي الصغير .. يا صديقي العزيز .. أنا أكبر منك سناً .. وأكثر منك خبرة في الحياة.. وإلى أن تنصلح الأحوال .. وهذا ما أتوقعه .. فليس لدي ما أمنحك إياه سوى نصيحة واحدة .. ونصيحتي هي إذا كان دخلك السنوي عشرين حنيها، وأنفاقك السنوي عشرين جنيهاً إلا ستة بنسات.. فسوف تعيش سعيداً مسروراً.. أما إذا تجاوز إنفاقك السنوي العشرين جنيها ولو بستة بنسات .. وسوف يحل الشقاء والخراب .. ستذبل الزهور.. وتجف أوراق الشجر .. وتغيب الشمس في الصحراء.. باختصار .. ستصبح مفلساً .. مثلي تماماً..!!

وحتى يؤكد مستر ميكاوبر نصيحته تلك، أخذ يغني ويرقص ..

وفي صباح اليوم التالي، رحلوا وتركوني وحدي ولم يعد أمامي سوى أن إقرر الذهاب إلى عمتي الكبرى مس "بيتسي تروتوود" .. قريبتي الوحيدة التي أعرفها.

وهكذا جمعت حاجياتي القليلة ووضعتها في صندوق، وخرجت إلى الطريق، وعند إحدى النواصي، رأيت شاباً يقف بجوار عربة فقلت له:

- هل يمكنك أن تحمل هذا الصندوق حتى نضعه في العربة المسافرة إلى **دوفر** .. كم تريد مقابلاً لذلك..؟!

فقال الشاب:

- ستة بنسات..
- وبالرغم من عدم ارتياحي لنظر ذلك الشاب..، فقد وافقت ووضعت الصندوق على العربة الصغيرة التي كان يقف بجوارها، وأخرجت حافظة نقودي لأعطيه أجره الذي اتفقنا عليه .. وفجأة أنقض الشاب على حافظة النقود وخطفها من يدي، وانطلق هارباً بأقصى سرعة.

وفي اللحظة التالية، أصبحت مفلساً وبلا نقود ..ولم أعد أمتلك شيئاً في هذا العالم .. هكذا بدأت طريقي إلى **دوفر** .. سيراً على الأقدام!

وعندما وصلت إلى **بلاك هيث**، قضيت الليل نائماً في أحد الحقول بالقرب من مدرستي القديمة **سالم هاوس**، وفي صباح اليوم التالي عاودت السير حتى وصلت إلى **روشستر**، ومنها توجهت إلى **شاتهام**.. وهناك قررت أن أبيع معطفي لأحصل بثمنه على طعام يسد جوعي.

ودخلت إلى دكان صغير يجلس فيه رجل عجوز له شكل قبيح، وبمجرد أن رآني، **قال على الفور**:

- آه يا عيني؛..! آه يا رجلي!
- ماذا تريد؟.. آوه .. آه يا أذني؛.. آه يا ذراعي! ماذا تريد جررررر..!!

قلت له مندهشاً:

- أريد أن أعرف .. هل يمكن أن تشتري معطفاً..

فقال العجوز على الفور:

- أوه .. آه يا قلبي .. آه يا بطني!..لا .. أعطيك فقط شلناً واحداً وستة بنسات!

وافقت .. ولكنه لم يعطني النقود على الفور.. وانتظر فترة طويلة .. ثم بدأ يعطيني النقود في عملات صغيرة أخذ يعدها ببطء .. كل نصف بنس وراء الآخر..

ثم واصلت بعد ذلك السير حتى وصلت إلى دوفر.. وإلى الكوخ الذي تعيش فيه عمتي الكبرى .. ورأيتها وهي تقف في الحديقة الملحقة بالكوخ..

وصرخت بمجرد أن شاهدتني اقترب:

- ابتعد عن هنا .. لا أريد أولادً في هذا المكان.

فقلت لها متوسلاً:

- لو سمحت يا مس "بيتسي" .. أنا "دافيد كوبرفيلد"، لقد ماتت أمي وأصبحت بائساً...

ثم انفجرت في البكاء ولم أستطع أن أواصل الكلام، وعندئذ طلبت عمتي من الخادمة أن تستدعي مستر "ديك"..

ووصل مستر "ديك" بسرعة.. وكان يبدو شبه مجنون على نحو ما .. **وقالت لي عمتي:**

- مستر ديك .. هذا هو "دافيد كوبرفيلد"!

فقال مستر "ديك":

- أوه .. نعم .. نعم ..

وقالت عمتي:

- الآن .. لا تتظاهر بالجنون بينما أنت في الحقيقة رجل ذكي .. هذا هو دافيد كوبرفيلد.. أخبرني .. ماذا أفعل معه؟!

فقال مستر "ديك" وهو ينظر نحوي:

- دعيه يستحم!

وأعطوني حماماً .. ثم تناولنا العشاء معاً..وحكيت لعمتي كل ما حدث .. وكانت عمتي مستغرقة في الإنصات .. **ثم قالت:**

- إني لا أستطيع أن أفهم لماذا يتزوج الناس .. إن أمك قد تزوجت .. ثم تزوجت مرة أخرى.. وتلك المرأة "بيجوتي" .. تزوجت هي الأخرى!

والتفتت عمتي إلى مستر "ديك" **وقالت له:**

- والآن يا مستر "ديك" .. أخبرني ماذا أفعل معه أيضاً..

فقال مستر "ديك":

- علينا أن نضعه في السرير لينام....!

15 ـ قـــرار عمتي:

كانت عمتي جالسة إلى مائدة الإفطار حين **قالت لي**:

- لقد كتبت إلى مستر "ماردستون" .. والآن بعد أن تناولت إفطارك، عليك بالصعود إلى السطح حيث مستر "ديك".
- **فقلت:** حاضر!

وقالت:

- إنه قريبي ..

وقلت:

- هل هو مجنون قليلاً..؟

قالت:

- كان أخوه ينوي إيداعه في دار المجانين. ولكني أنقذته من هذا المصير، وسمحت له بأن يعيش معي في بيتي .. أنه رجل عطوف جداً .. وكثير ما يقول نصائح طيبة بالرغم من أنه مجنون قليلاً.. فهو يتحدث كثيراً عن رأس الملك "تشارلس" المقطوعة[1].. وهو يكتب شكاوي كثيرة يقول أنه ينوي أن يرسلها إلى القاضي ليشرح له فيها أحواله وشئون وأعماله .. ولكن رأس الملك "تشارلس" تظهر دائماً لتتدخل في هذه الشكاوي .. ولذلك يبدأ في كتابة شكاوي أخرى غيرها..!

وصعدت إلى السطح .. إلى مستر "ديك" الذي أراني "طيارة ورقية" ذات خيط طويل ومغطاة كلها بشكاوي مكتوبة تتحدث عن رأس الملك "تشارلس" المقطوعة. **وقال مستر ديك:**

---

[1] كان أتباع كرومويل قد قطعوا رأس الملك تشارلس الأول في سنة 1649م

- بهذه الطيارة أرسل أفكاري إلى العالم وكلما صعدت الطيارة إلى عنان السماء .. كلما صعدت أفكاري إلى أعلى وأعلى ..!!

وبعد عدة أيام وصل مستر "ماردستون" وأخته مس "ماردستون" إلى بيت عمتي.. وجلسا .. **وقالت عمتي**:

- أنت إذن مستر "ماردستون" الذي تزوج مسز "كوبرفيلد"..؟

فقال مستر "ماردستون":

- نعم .. هو أنا.

وقالت عمتي وهي تشير إلي:

- وهذا هو ابنها ...؟

فقال مستر "ماردستون" مؤكداً:

- نعم ولقد فر هارباً من أصدقائه بعد أن ترك عمله .. لقد سبب لنا الكثير من المتاعب!

وعقبت مس "ماردستون" على كلامه **قائلة**:

- إنه دون جميع الأولاد .. أسوأ ولد في العالم !

ثم واصل مستر "ماردستون" كلامه:

- لقد جئت لأعيده معي إذ كان هو مستعد للعودة .. أما إذا كان غير راغب في ذلك فسوف أغلق في وجهه أبوابي .. وأظن أنك في هذه الحالة ستفتحين له أبوابك!

والتفتت عمتي إلي وسألتني:

- هاه .. ما رأيك؟ .. هل تريد العودة معه؟!

فأجبت على الفور:

- لا .. لا .. أنهما يكرهاني .. ولم يعطفا علي أبداً.. لقد جعلا أمي تعيش حياة تعيسة .. أرجوك .. أرجوك يا عمتي .. لا ترسليني معهما..!

فالتفتت عمتي إلى مستر "ديك" **وسألته**:

- والآن يا مستر ديك .. ماذا أفعل معه..؟!

وأخذ مستر " ديك" يفكر طويلاً، ثم **قال**:

- يجب أن اشتري له بعض الملابس!

وهنا التفتت عمتي إلى مستر ماردستون وقالت له:

- سأحتفظ بالولد .. وأنا لا أصدق كلمة واحدة مما قلته عنه .. أنا أعرف ما حدث تماماً..قبل أن تتزوج أمه قلت لها أنك ستصبح أباً ثانياً لأبنها .. ولكن بعد أن تزوجتها أجبرتها على أن تغير مشاعرها نحو ابنها .. لقد كانت امرأة عطوفة طيعة، ولكنك كنت تقسو عليها وتقسو على ابنها .. كنت تكرهه لأن مجرد رؤيته كانت تذكرك بمدى قسوتك.

وعندئذ وقف مستر "ماردستون" بجوار الباب، وكان يبدو شاحب الوجه.

وقالت عمتي:

- وداعاً لك .. وداعاً يا مس "ماردستون"..!

وبعد أن رحل مستر "ماردستون" وأخته .. قبلت عمتي .. وصافحت مستر "ديك" .. **وقالت عمتي**:

- من الآن سأدعوك: "دافيد تروتوود كوبرفيلد"..

وهكذا بدأت حياة جديدة .. باسم جديد..

وهكذا ذهبت جميع الحوادث التي جرت لي فيما مضى بعيداً بعيدا .. وأصبحت مجرد ذكريات ..

16 ـ وبدأت بداية جديدة:

سرعان ما أصبحت أنا ومستر "ديك" أصدقاء مخلصين .. وكثيراً ما كنا نخرج معاً لتطيير "طيارته الورقية الكبرى" .. وكان يقضي ساعات طويلة كل يوم يعمل بهمة في كتابة الخطاب الذي ينوي إرساله إلى القاضي .. ولكنه كان لا ينتهي من هذا الخطاب إطلاقاً ..لأن سيرة الملك "تشارلس الأول" كانت تفرض نفسها على موضوع الخطاب مهما حاول هو أن يتلافى ذكر هذه السيرة، وعندئذ كان يتوقف عن الكتابة، ويشرع على الفور في كتابة خطاب جديد.

وكانت "الطيارة" مصنوعة بأكملها من أوراق الخطابات التي توقف عن إكمالها وألقاها جانباً. وعندما كان يشرع في تطيير "الطيارة" كان يبدو في قمة الإحساس بالسلام والسعادة. وعندما كانت الطيارة تبتعد عالياً في عناء السماء، كانت تبدو كما لو كانت قد أبعدت شعرة الجنون عن عقله.. أما حين كانت تهبط إلى الأرض وتستقر عليها، فقد كانت تبدو في نظره كشيء ميت لا حول ولا قوة، وعندئذ كان يشعر كما لو أنه قد أفاق من حلم .. وأنه هو والطيارة قد هبطا إلى الأرض معاً .. وعندئذ كنت أشفق عليه وأشعر بالحزن والأسف من أجله ..

وأصبحت عمتي شديدة العطف علي، واختصرت اسمي إلى "تروت" بدلا من "تروتوود".. وفي إحدى الأمسيات **قالت لي عمتي**:

- تروت.. يجب ألا ننسى موضوع دراستك .. فهل تحب أن تذهب إلى مدرسة **كانتربري**..؟
- نعم .. أحب ذلك كثيراً..
- عظيم .. هل تحب أن تلتحق بالمدرسة غداً..؟

وهكذا سافرنا في صباح الغد إلى **كانتربري** .. وعندما وصلنا إلى هناك **قالت عمتي**:

- علينا أن نذهب أولاً إلى مستر "ويكفيلد" .. إنه محام!

وتوقفنا أمام بيت قديم جداً، تبرز نوافذه مطلة على الشارع ..وتؤدي إلى بابه درجتان حجريتان شديدتا البياض .. أما النوافذ فقد كانت مصنوعة من مربعات زجاجية صغيرة غريبة الشكل ..

وعندما توقفت العربة أمام باب البيت .. رأيت وجها أبيض يطل من إحدى النوافذ .. ثم فتح لنا الباب رجل اسمه "يورياه هيب" له وجه أبيض .. وعينان لهما لون هو مزيج من الأحمر والبني، وكتفان مرتفعان، وذراعان طويلتان نحيفتان .. وقد لاحظت ذلك عندما وقف هذا الرجل بجوار الحصان الذي يجر العربة، وبدأ يربت على خده .. **وسألته عمتي**:

- "يورياه هيب" .. هل مستر "ويكفيلد" موجود بالبيت ..؟
- نعم مستر "ويكفيلد" موجود بالبيت.

وأشار إلينا بذراعه الطويلة إلى مكان حجرة الاستقبال .. وفوق رف المدفأة التي تتصدر الحجرة، رأيت صورة لجنتلمان رمادي الشعر، تقف إلى جانبه سيدة جميلة ذات ملامح طيبة وديعة.

وبعد لحظات دخل إليه مستر "ويكفيلد".. أنه نفس الجنتلمان الذي يظهر في الصورة. وإن كان يبدو الآن أكبر عمراً ببضع سنوات.

وقال لعمتي:

- أهلاً بك يا مس "تروتوود" .. ما سبب حضورك إلى هنا..؟

فقالت عمتي:

- هذا هو "دافيد تروتوود كوبرفيلد" .. وأنا عمته الكبرى .. إني أبحث له عن مدرسة يتعلم فيها جيداً ويعامل فيها معاملة حسنة .. أخبرني أين أجد هنا مثل هذه المدرسة..؟!

وقال مستر "ويكفيلد":

- توجد هنا مدرسة جيدة .. ولكن "دافيد" لن يمكنه أن يعيش فيها في الوقت الحاضر.. ومع ذلك فسأخبرك بما يجب عليك أن تعمليه .. اتركيه هنا .. إنه ولد هادئ .. وبيتي بيت هادئ .. اتركيه معي في هذا البيت!

فشكرته عمتي شكراً جزيلاً .. **وواصل مستر "ويكفيلد" حديثه:**

- تعالي معي لأريك المشرفة الصغيرة التي تتولى شئون هذا البيت..

وصعد بنا إلى الطابق العلوي .. ودخلنا إلى حجرة منظمة ذات رونق جميل، رأينا فيها فتاة جميلة في مثل عمري، سرعان ما هبت واقفة واتجهت إلى مستر و"يكفيلد" وأخذت تقبله .. كانت الفتاة تشبه تماماً المرأة الجميلة المرسومة في الصورة .. نفس الجمال الهادئ الوديع الذي لم أنسه أبداً .. بل ولن أنساه أبداً..

وقال مستر "ويكفيلد":

- هذه هي ابنتي "أجنس" ..

ثم التفت إلى ابنته وقال:

- "أجنس" .. "دافيد كوبرفيلد" ضيفنا وسيبقى معنا .. من فضلك أريه حجرته..

وبعد أن ذهبنا جميعاً لنرى الحجرة، قررت عمتي أن تعود بسرعة إلى دوفر لتصلها قبل أن يحل الظلام .. **ولكن قبل رحيلها انفردت بي وقالت تنصحني:**

- تروت .. حافظ على نفسك وكن محترماً ..وعليك أن تلتزم بكل ما يشرفني ويشرف مستر "ديك".. والله معاك ويتولاك .. كن أميناً في كل شيء.. و؟إياك أن تصبح كاذباً أو مخادعاً .. ولا تكن قاسياً.. والآن علي أن أرحل فوراً..

وقبلتني بسرعة، وخرجت من الحجرة بعد أن أغلقت علي بابها .. ولذلك فقد اعتقدت عمتي غاضبة مني، ولكني عندما نظرت خلال النافذة التي تطل على الشارع .. رأيت كم هي حزينة وهي تدخل إلى العربة .. لقد تظاهرت بالغضب لتخفي مشاعرها الحقيقية.

وفي المساء تناولت العشاء مع مستر "ويكفيلد" وابنته "أجنس".. وبعد أن انتهينا من العشاء، غنت "أجنس" أغنية لطيفة، ثم قبلت أباها قبلة المساء وذهبت إلى حجرتها لتنام..

أما أنا فقد خرجت لأتجول قليلاً في الأماكن القريبة .. ورأيت عدد كبيراً من البيوت القديمة والكنائس، وعندما عدت إلى البيت، رأيت "يورياه هيب" وهو يغلق أبواب المكتب.

ولما كنت أشعر بالصداقة والود نحو الجميع.. فقد جلست قليلاً مع "يورياه" وتحادثنا لبضع دقائق، ومددت يدي لأصافحه قبل أن أصعد إلى حجرتي.. وكم كانت يده باردة.. لقد أخذت أمسح بعد ذلك كما لو كنت أريد أن أمحو آثار يده.

وعندما رقدت على السرير .. كنت لم أزل أحس بعقلي.. ملمس يداه الباردة المبتلة..

17 – **أجنـــــس**:

وفي صباح اليوم التالي، ذهبت مع مستر "ويكفيلد" إلى المدرسة، كانت بناء ذا مظهر وقور، يقع وسط ساحة واسعة، وقدمني مستر "ويكفيلد" إلى الدكتور "سترونج" ناظر المدرسة.. وكان رجلاً غير مهندم ويعلو التراب ثيابه.. وله شعر رأس أطول من المعتاد.

نظر الدكتور "سترونج" إلي بعينين باردتين. وقال إنه مسرور لرؤيتي، ومد يده ليصافحني، وكانت تجلس بجانبه شابة صغيرة شديدة الجمال، ظننت في البداية أنها ابنته، وعلمت فيما بعد أنها مسز "سترونج" .. زوجته!

وصحبني الناظر ليرشدني إلى حجرة الدراسة، حيث رأيت نحو أربعة وعشرين تلميذاً، كلهم كانوا مشغولين بمطالعة كتبهم، ووقفوا جميعاً عندما دخل الناظر، وأشر إلي **قائلاً**:

- هذا زميل جديد أيها السادة الصغار.. اسمه "تروتوود كوبرفيلد".

وخرج من بين المقاعد صبي اسمه "أدمز".. رحب بي.. وأرشدني إلى مقعدي.

وشعرت بالغربة بين هؤلاء الأولاد.. فجميعهم لا يعرفون شيئاً عن تجاربي السابقة.. كما إني لا أعرف شيئاً عن كيفية ألعابهم وطرقهم في التعامل.. وأخذت أتخيل ماذا يظنون هؤلاء الأولاد بي، إذا علموا أني كنت أعيش مع أشخاص مثل "ميكاوبر" وأسرته .. أو إذا كانوا قد شاهدوني حينما سرت على قدمي من لندن إلى **دوفر** جائعا رث الثياب..؟!

لم أشعر بالارتياح بين هؤلاء الأولاد.. بل ربما شعرت بالخوف منهم .. لذلك فقد سارعت في الانصراف عقب انتهاء اليوم الدراسي، وبمجرد وصولي إلى بيت مستر "ويكفيلد" تبددت مخاوفي وتعاستي.. وجلست في حجرتي

المنظمة الجميلة اقرأ في كتبي حتى حل موعد العشاء.. فنزلت إلى الطابق السفلي ورأيت "أجنس" جالسة في غرفة المعيشة، وبعد لحظات وصل والدها مستر "ويكفيلد"، **وقال**:

- ستكون سعيد في مدرسة الدكتور "سترونج".

وبعد الانتهاء من تناول العشاء أحضرت "أجنس" مجموعة من زجاجات الشراب ووضعتها على المائدة أمام مستر "ويكفيلد" الذي بدأ على الفور يحتسي الشراب كأساً وراء آخر.

وشرب مستر "ويكفيلد" كمية كبيرة .. وغنت "أجنس" بعض الأغاني القصيرة.. ثم جلست بحوار أبيها وأخذت تحادثه..

أما أنا فقد أحضرت كتبي في مذاكرة دروسي .. وتفحصت "أجنس" بعض هذه الكتب ثم جلست بجواري لتساعدني في المذاكرة.

والآن بينما أكتب هذه الكلمات من قصة حياتي .. ما زلت أذكر تماماً كيف أحسست بوداعتها وطبعها الهادئ. . وكيف أحسست بصوتها الوديع العذب وهي تتكلم.. وما زلت إلى الآن أشعر بأفضالها على في تلك الفترة وفيما بعد أيضاً..

لقد أحببت من قبل "اميلي" الصغيرة.. ولكني أصبحت أشعر بالفضل.. والوداعة.. والسلام.. والصدق.. أينما تكون "أجنس"..

18- يورياه هيب.. المتواضع

وبعد ذلك ذهب مستر "ويكفيلد" إلى المكتب ليواصل عمله .. وفي المكتب رأيت ضوءاً خافتاً، ورأيت "يورياه" جالساً ويقرأ في كتاب ضخم ويقرأ في كتاب ضخم، ويتتبع كل سطر يقرأه بأصبعه، **فقلت له:**

- أنك تعمل حتى وقت متأخر هذه الليلة يا "يورياه".
- هذا صحيح يا مستر "كوبرفيلد".. ولكني لا اشتغل الآن بأعمال المكتب .. إني أدرس القانون.
- تدرس القانون؟.. كنت أظن أنك محام كبير.
- لا يا مستر "كوبرفيلد".. أنا شخص متواضع جداً.. وأمي أيضاً متواضعة جداً.. وأعيش معها في بيت متواضع.. وكان أبي أيضاً رجلاً متواضعاً.. ويعمل في مهنة متواضعة.. لقد كان خادماً في كنيسة، ويقوم أيضاً بحفر القبور في ساحتها.

فسألته:

- وأين هو الآن..؟
- في السماء.. ولكن لدينا أشياء كثيرة نحمد الله عليها.. فأنا أحمد الله لأني أعمل مع مستر "ويكفيلد".. وأتمنى أن أصبح محامياً.
- وعندئذ ستشارك مستر "ويكفيلد" في مكتبه.. وسيصبح اسم المكتب "ويكفيلد وهيب"..
- لا يا مستر "كوبرفيلد".. إني متواضع جداً ولا أجسر على فعل ذلك.. إن عمتك سيدة لطيفة ..

وكان "يورياه هيب" معتاداً على تحريك جسمه عندما كان يتحدث بكلام طيب عن أي شخص.. وفعل ذلك عندما كان يحدثني عن عمتي:

- إنها سيدة لطيفة.. وهي معجبة كثيراً بمس "أجنس".. أليس كذلك..؟!

فأجبت دون أن أدري بما **أقول:**

- نعم .. نعم.

وسألني يورياه:

- وأنت أيضاً معجب بها .. أنا متأكد من أنك معجب بها..!

فقلت:

- أن أي شخص لابد أن يعجب بها!
- أوه.. شكرا لك يا مستر "كوبرفيلد" على هذه الكلمات .. شكراً لك .. أنها كلمات صادقة!

وقال متأهباً للانصراف، وهو **يقول:**

- إن أمي تتوقع الآن عودتي .. لو أنك فكرت في زيارتنا في بيتنا المتواضع.. فسوف يسعدها ذلك كثيراً .

فقلت له أن ذلك سيسعدني أيضاً، **وقال قبل أن ينصرف:**

- ربما ستبقى هنا في هذا البيت يا مستر "كوبرفيلد" لمدة طويلة.. وربما ستتولى العمل بدلا من مستر "ويكفيلد" في النهاية؟!
- لا .. أنا لا أفكر في مثل ذلك إطلاقاً..
- أوه .. أنا متأكد من أن ذلك سيحدث.

ووضع يده في يدي يصافحني.. فأحسست بملمس يده وكأنها سمكة.. وحلمت بذلك في تلك الليلة..

19ـ مدرسة الدكتور سترونج:

كانت مدرسة الدكتور "سترونج" رائعة وعظيمة. وتختلف تماماً عن مدرسة مستر "كريكل"، وكانت الثقة متبادلة بين التلاميذ والمدرسين.. وكنا نشعر جميعاً بأننا مسئولون عن نجاح المدرسة في أداء رسالتها. ولذلك فقد كنا نحب المدرسة ونعمل كل ما يشرفها ويشرفنا.

وكان بعض التلاميذ يعيشون في بيت الدكتور "سترونج".. وهم الذين أخبروني بأن الدكتور تزوج منذ عام مضى من هذه الشابة الصغيرة الجميلة التي رأيتها معه.

وكان الدكتور يقوم بتأليف أحد الكتب.. ولكنه كان بطيئا للغاية، لدرجة الإحساس بأنه لن ينتهي من تأليف كتابه هذا قبل مرور ألف سنة!.. ولكنه كان رجلا طيباً كثير العطف على الفقراء، ويحكي الأولاد قصة طريقة عن كرمه.. فقد أعطى معطفه لامرأة فقيرة.. ولكن المرأة باعت المعطف لتشتري بثمنه خمراً تشربه .. وبعد مدة.. شاهد الدكتور المعطف معروضاً في إحدى المحلات، فاشتراه دون أن يدرك أنه نفس معطفه الذي وهبه للمرأة.

واستلمت خطاباً من "بيجوتي" كتبت فيه بعض أخبارها.. قال أن مستر "ماردستون" وأخته مس "ماردستون" قد رحلا بعد أن أغلقا البيت.. وأن زوجها "باركيس" في حالة طيبة ولكنه شديد الحرص على نقوده.. وأن مستر "بيجوتي" أيضاً في حالة طيبة، وكذلك "هام" و"اميلي" الصغيرة .. أما مسز "جاميدج" فقد كانت مريضة.

وكانت عمتي تفاجئني بالزيارة في أوقات غير متوقعة لترى كيف تسير أحوالي.. ولكنها اطمأنت تماماً بعد أن تأكدت من حرصي على التعلم وأداء واجباتي. وكنت أذهب إلى **دوفر** لزيارتها مرة كل ثلاثة أو أربعة أسابيع.. أما

مستر "ديك" فقد كان يحضر لزيارتي بصفة منتظمة كل يوم أربعاء.. وكان يحمل معه دائماً حقيبة أوراقه وآخر ما كتبه من خطابه العظيم الذي ينوي أن يرسله للقاضي..!

وأصبحت أيام الأربعاء هذا أسعد أيام مستر "ديك".. إذ سرعان ما أصبح معروفاً ومحبوباً من جميع تلاميذ المدرسة.. كان لا يشاركهم في اللعب، ويكتفي بمشاهدة ألعاب التلاميذ وينفعل بها.. وكان يجد متعة عظيمة وهو يتفرج على الأولاد وهم يمرحون ويلعبون على الثلوج المتساقطة.

وكان مستر "ديك" يجيد صناعة لعب مثل القوارب والعربات الصغيرة.. يصنعها من مواد غريبة ويعلم الأولاد كيف يصنعونها، ولذلك فقد أحبه جميع الأولاد وأصبحوا ينتظرون موعد مجيئه للزيارة القادمة.

وكان يحترم الدكتور "سترونج"، ويقف أمامه بأدب بالغ بعد أن يخلع قبعته.. وسرعان ما أصبح هو والدكتور صديقين حميمين، بل وبدأ الدكتور يتلو عليه بعض صفحات من الكتاب الذي يقوم بتأليفه .. وعندئذ كان مستر "ديك" ينصت بإمعان ويشرق وجهه بالسرور.. بالرغم من يقيني بأنه لا يفهم كلمة واحدة مما يقوله الدكتور.

20 ـ تناولت الشاي مع يورياه هيب

وفي عصر أحد أيام الخميس.. قابلت "يورياه هيب" في الشارع، فقال لي:

- لقد وعدتني بأنك ستحضر لتناول الشاي معنا أنا وأمي.. ولكني أتوقع أنك لن تقبل هذه الدعوة.. فنحن ناس متواضعون جداً..

وحتى تلك اللحظة، لم أكن قد أدركت بعد هل أنا أحب "يورياه هيب" أم أكرهه، ولكني أخبرته بأني على استعداد لقبول دعوته، **فقال:**

- إن أمي ستكون فخورة بذلك.

وسألته:

- هل ما زلت تواصل دراسة القانون..؟

فأجاب:

- إن قراءتي لقراءة القانون لا ترقي إلى مستوى لدراسة .. ففي بعض الأمسيات أقضي ساعة وساعتين في قراءة كتب القانون.. ولكني أصادف بعض الصعوبات.. فهناك بعض الكلمات والمصطلحات مكتوبة باللغة اللاتينية ولا أستطيع أن أفهمها..
- هل تحب أن أساعدك في تعلم اللاتينية..؟
- أوه .. شكرا لك يا مستر "كوبرفيلد" على هذا العرض الطيب.. ولكني متواضع وذليل ولا استحقه ها نحن قد وصلنا الآن إلى بيتنا المتواضع!

ودخلنا إلى غرفة منخفضة السقف، وقالت مسز "هيب" (أم يورياه) وكانت تشبهه إلى حد كبير وإن كانت أقصر منه طولاً، وقد استقبلتني بتواضع شديد **وهي تقول:**

- إن هذا يوم لا ينسى يا عزيزي "يورياه".. إن حضور مستر "كوبرفيلد" لزيارتنا يعتبر شرفاً كبيراً لنا.

ثم التفتت إلي **وقالت**:

- كان عزيزي "يورياه" يخشى أن يمنعك تواضعنا وفقرنا من تلك الزيارة التي وعدته بها .. فنحن متواضعون جداً وفقراء.. وسنبقى هكذا دائماً..

فقلت مندهشاً:

- ولكني على يقين من أنه ليست هناك حاجة لأن تكونا متواضعين بهذا الشكل.

فقالت مسز "هيب":

- شكراً لك يا سيدي!

وجلست مسز "هيب" بالقرب مني .. وجلس "يورياه" أمامي .. وأخذا يعطياني أفضل قطع الطعام الموجودة على المائدة.

تحدثا عن حالتهما وعماتهما، فتحدثت عن عمتي.. ثم تحدثا عن الآباء والأمهات، فتحدثت عن أبي وأمي.. ولكني توقفت فجأة بعد أن تذكرت أن عمتي نصحتني بألا أتحدث في هذا الموضوع مع أحد..

ومع ذلك فقد فقدت المقاومة مع "يورياه هيب" وأمه اللذين استدرجاني إلى الحديث في كل ما كانا يرغبان معرفته.. حتى تلك الأشياء التي لم أكن أرغب في ذكرها.

وعندما انتهيا من معرفة كل مكان يرغبان فيه، حولا مجرى الحديث إلى ذكر أخبار مستر "ويكفيلد" وابنته "أجنس".. الأشغال الكثيرة التي يعملها.. وكيف يقضي وقته بعد تناول عشائه.. والخمر الكثيرة التي يشربها.. وهكذا وجدت نفسي متورطاً في ذكر جميع الأشياء التي لا يجب أن أذكرها..

وبدأت أتململ وأرغب في إنهاء هذه الزيارة، وفجأة: رأيت رجلاً كان يسير في الشارع.. ولكنه توقف أمام باب الحجرة وأطل برأسه إلى داخلها، **وصاح مندهشاً:**

- "كوبرفيلد"!! .. هذا مستحيل!!

كان هذا الرجل هو مستر "ميكاوبر" بعينه..!!

والحقيقة أني كنت لا أريد أن يعرف "يورياه هيب" ولا أمه إني أعرف رجلاً مثل مستر "ميكاوبر".. ولكن هذا الأمر انتهى تماماً.. **بعد أن استمر مستر "ميكاوبر" في صياحه:**

- يا عزيزي "كوبرفيلد".. إنها حقاً مصادفة مدهشة!

ثم التفت إلى "يورياه" وأمه **وقال لهما:**

- إنها مفاجأة عظيمة.. لقد اكتشفت أن صديقي "كوبرفيلد" يتناول معكما الشاي.. وسيكون من دواعي الشرف بالنسبة لي أن يعرفكما بي ويعرفني بكما..

فقمت بذلك على مضض..

وقالت مسز "هيب":

- إننا ناس متواضعون .. وقد شرفنا مستر "كوبرفيلد" بقبول الدعوة لشرب الشاي معنا.. إننا نشكر له هذا الجميل!

وقال مستر "ميكاوبر" يحدثني:

- والآن .. ماذا تعمل يا "كوبرفيلد"؟

فقلت له:

- إني أدرس بمدرسة الدكتور "سترونج".

ولأني أصبحت راغباً الآن في إنهاء الزيارة فوراً ومصاحبة مستر "ميكاوبر" إلى الخارج، **فقد قلت له وأنا أهم بالقيام:**

- وكيف حال مسز "ميكاوبر"؟.. هل يمكنني الذهاب معك لزيارتها..؟

فقال وهو يتأهب للانصراف معي:

- سيكون هذا من دواعي سروري.

وذهبت معه إلى حانة صغيرة كان يعيش مع زوجته في إحدى حجراتها، **وسألتهما مستفسراً:**

- ولكن.. لماذا جئتما إلى هذه المنطقة؟

فأجابت مسز "ميكاوبر":

- بعض أقاربي يقيمون هنا.. وكنت أتوقع أنهم سيساعدوننا بإيجاد عمل لمستر "ميكاوبر".. ولكني شعرت بأنهم غير مسرورين لرؤيتنا.. وكان الشيء الوحيد أمامنا هو أن نقترض منهم بعض النقود لنتمكن من العودة إلى **لندن**.. ولكننا توقفنا هنا لعلنا نجد عملاً في صناعة الفحم..

وقبل أن تنتهي الزيارة طلباً مني أن أقبل الدعوة لتناول العشاء معهما في اليوم التالي.. ولم أستطع رفض الدعوة..

وفي عصر اليوم التالي.. استدعيت من حجرة الدراسة، فخرجت ورأيت مستر "ميكاوبر" ينتظرني ويخبرني بأن العشاء جاهز.

وفي المساء رأيت مستر "ميكاوبر" و"يورياه هيب" يسيران معاً ذراعاً في ذراع.. ولم يسرني هذا المنظر ولم أرتح له..

وبعد ظهر اليوم التالي.. ذهبت لزيارة مستر ومسز "ميكاوبر" في الحانة.. وتناولنا العشاء معاً.. وأخذ يحدثني عن "يورياه" قائلاً:

- أن صديقك "يورياه هيب".. له عقل كبير واسع الإدراك..

وكان العشاء طيباً.. وكان مستر "ميكاوبر" في غاية المرح .. وغنى أغنيات كثيرة.. وعشنا جميعاً لحظات رائعة من الصداقة والود.. ولا أظن إني رأيت أحداً في حياتي أسعد وأهنأ من مستر "ميكاوبر" في تلك الأمسية.

ومع ذلك.. ففي الساعة السابعة من صباح اليوم التالي، تلقيت هذه الرسالة العاجلة:

"لقد انتهى كل شيء.. ولم يعد هناك أمل في الحصول من أقارب زوجتي على أية نقود.. لقد أصبحت عاجزاً عن سداد ما أنا مدين به.. وسيكون مصيري السجن فوراً.. وهذا أخر ما سوف تسمعه عني".

اندهشت وشعرت بالخوف والاضطراب بسبب هذه الرسالة المفاجئة، وانطلقت صوب الحانة لعلي أستطيع أن أقدم أية مساعدة.

ولكن بينما كنت منطلقاً في الطريق.. رأيت عربة السفر إلى **لندن** منطلقة هي الأخرى.. وفي مؤخرتها كان يجلس مستر "ميكاوبر" وزوجته.. وكان يبدو في قمة السعادة ويقهقه ضاحكاً على شيء قالته مسز ميكاوبر فيما يبدو.. وكانا يأكلان بعض الحلويات من لفة ورقية كانت تضعها مسز "ميكاوبر" على ركبتيها..

الجزء الرابع
العـــــالـــــم..

21ـ وتركت المدرسة:

انتهت دراستي بالمدرسة، وأصبح من الضروري أن نتناقش أنا وعمتي في موضوع مستقبلي ونوع العمل الذي سأشغله، **وقالت عمتي**:

- إن هذا موضوع هام.. وعلينا أن نكون حريصين ولا نرتكب خطأ.. وعليك أن تفكر في هذا الأمر كرجل ناضج، وليس كتلميذ في مدرسة!

فقلت لها:

- سأفعل ذلك يا عمتي!
- إذن أعتقد أن السفر وتغيير الجو سيكونا مفيدين .. إن ذلك سيساعدك على التفكير واتخاذ القرار المناسب.. واقترح عليك أن تقوم برحلة لزيارة عائلة "بيجوتي"!
- هذا خير رحلة أقوم بها.. إني أحب ذلك كثيراً.

وهكذا.. ذهبت أولاً إلى **كانتربري** لأودع "أجنس" وأباها مستر "ويكفيلد"، **وقلت لها:**

- سأشعر بالحاجة إليك دائماً.. أن أي شخص يحتاج عونك.. تكونين له خير عون.. يا "أجنس"!

فقالت "أجنس":

- إني طيبة مع الجميع.. والجميع طيبون معي.

وقلت لها وأنا أشعر بمنتهى الود:

- كلما واجهت مشكلة.. أو إذا وقعت في الحب.. فسوف أخبرك.. إذا سمحت لي بذلك..

فقالت:

- ولكنك كنت تقول لي دائماً أن أمور حبك تسير على ما يرام.
- أوه.. لقد كنت طفلاً وأحببت طفلة.. وإني أعجب لماذا لم تقعي حتى الآن في الحب..؟!

أدارت "أجنس" عينيها خجلاً.. ولكنها بعد لحظة. نظرت إلي باهتمام وقالت لي:

- هناك شيء أريد أن أسألك عنه.. ألم تلاحظ حدوث أي تغيير طرأ على أبي..؟!

وكنت بالفعل قد لاحظت حدوث عدة تغييرات، فهززت رأسي علامة على معرفة بعض الملاحظات، **وسألتني "أجنس":**

- هل تستطيع أن تخبرني بما لاحظت..؟

فقلت بصراحة:

- أعتقد أنه يضر نفسه بالإفراط في تناول الشراب.. لقد أصبحت يداه ترتعشان.. كما أنه أصبح لا يستطيع الحديث بوضوح.. وكذلك نظرات عينيه أصبحت وحشية وغير طبيعية.. وقد لاحظت أنه عندما يكون في أسوأ حالاته فإن أحد يستدعيه دائماً لأداء بعض الأعمال..
- تقصد "يورياه هيب"؟
- نعم.. وكان مستر "ويكفيلد" يشعر عندئذ بأنه قد أصبح عاجزاً عن أداء عمله.. وفي كل يوم كانت حالته تزداد سوءاً.. وفي إحدى المرات، رأيته قد أسند رأسه على المنضدة وكان يبكي مثل الأطفال!

وعندما نويت مواصلة الرحلة إلى **لندن**، ساعدني "يورياه هيب" في ربط صندوق سفري.

وأخيراً.. وصلت إلى **لندن**..

وذهبت إلى المسرح ذلك المساء.. وعدت إلى الفندق الذي استأجرت غرفة فيه، وبينما كنت في طريقي إلى تلك الغرفة، دخل إلى صالة الفندق رجل أعرفه جيداً، برغم أنه لم يعرفني لأول وهلة.. وعلى الفور فاض قلبي وامتلأ عقلي بالذكريات الحلوة التي كانت تربطني في الماضي بهذا الرجل. فانطلقت إليه **وسألته مندهشاً**:

- "ستيرفورث"!.. ألا تريد أن تتحدث معي..؟!

وفي الحال تنبه "ستيرفورث" **وقال**:

- من؟! "كوبرفيلد" الصغير
- يا عزيزي "ستيرفورث".. كم أنا سعيد برؤيتك!
- وكم أنا أيضاً سعيد برؤيتك.. إن أمي تعيش في مكان قريب.. خارج لندن.

وتواعدنا على اللقاء للإفطار صباح اليوم التالي، وقال "ستيرفورث" عندما التقينا:

- ما رأيك في البقاء معي في **هاي جيت** لمدة يوم أو يومين؟.. إني أحب أن أعرفك إلى أمي .. فهي سيدة طيبة وشديدة الفخر بي.. وتتحدث عني دائماً فاغفر لها ذلك.. وأنا على يقين بأنها ستسر كثيراً برؤيتك.

وعلى هذا فقد ذهبنا إلى **هاي جيت** بعد عصر ذلك اليوم.. ووصلنا إلى بيت قديم مبني بالطوب.. ورأيت سيدة عجوزاً كانت تقف عند بابه.. وعرفت أنها أم "ستيرفورث".. وقابلتني بترحاب، وأدخلتني إلى غرفة المعيشة.. حيث وجدت سيدة أخرى سوداء الشعر والعينين، وعلى خدها علامة تبدو كما لو

كانت أثر لجرح قديم.. وكان اسم هذه السيدة مس "دارتل".. ولكن "ستيرفورث" وأمه كانا يدعوانها "روزا"..

وعندما أصبحنا وحدنا .. توقعت أن يحدثني "ستيرفورث" عن مس "دارتل" .. ولكنه لم يقل شيئاً.. فسألته:

- إنها تبدو ذكية.. أليس كذلك؟

فقال على الفور:

- ذكية؟.. إنها تزداد صرامة عاما وراء عام.. إنها متطرفة في كل شيء.
- وهذه العلامة الغريبة التي تبدو في وجهها..؟!
- الحقيقة.. إني كنت السبب في تلك العلامة.
- هل كان ذلك نتيجة لحادث؟
- كنت عندئذ طفلاً صغيرة.. وأغضبتني فقذفتها بمطرقة..
- إني آسف .. لأني تسببت في هذا الحديث المؤلم..

فقال ستيرفورث:

- لقد حملت هذه العلامة على وجهها منذ ذلك الزمن.. وستظل تحملها حتى تذهب إلى قبرها..!
- إني لا أشك في أنها تحبك كأخ لها..

أما مسز "ستيرفورث" فقد كانت تحب ابنها حباً جماً.. وتبدو وكأنها لا تفكر في أي شيء آخر أو لا تتحدث عن أي شيء آخر سواه.. فقد أرتني جميع صوره.. منذ أن كان طفلاً صغيراً.. وحين كان صبياً يافعاً أيام عرفته لأول مرة في مدرسة مستر "كريكل"..

وكانت تحتفظ بجميع الخطابات التي أرسلها لها منذ سنوات بعيدة وحتى وقت قريب.. وكانت تريد أن تقرأ لي كل هذه الخطابات لولا أن منعها "ستيرفورث" من الشروع في ذلك.

وعندما صعدت إلى غرفة نومي .. لاحظت وجود صورة لمس "دارتل" موضوعة فوق رف المدفأة.. وكانت تبدو كما لو أنها تمعن النظر إلى بعينيها السوداوين.. وتلقى إلي بأسئلة شتى..

وكان هناك خادم هادئ جداً اسمه "ليتيمر" يبدو كما لو كان قوقعة أغلقت الصدفة على نفسها.. وكان يحضر إلى حجرتي كل صباح ليسألني سؤالاً واحد لا يتغير:

- إن مستر "ستيرفورث" يحب أن يعرف هل قضيت وقتاً مريحاً..؟

وكنت أقول له:

- شكر لك.. أنا بخير.. وكيف حال مستر "ستيرفورث"..؟

وكان يقول:

- بخير .. هل يمكنني أن أقوم بأية خدمة لك يا سيدي؟
- لا ... أشكرك..
- شكراً لك يا سيدي..

ثم ينصرف بهدوء شديد ويخرج من الحجرة...

22ـ ستيرفورث يزور عائلة بيجوتي:

أصر "ستيرفورث" على أن يصاحبني في رحلتي إلى **يارماوث** لزيارة عائلة "بيجوتي".. وعندما وصلنا إلى تلك البلدة، وعدته أن نذهب سوياً لزيارة العائلة في المساء، واستأذنت منه لفترة، ذهبت فيها وحدي لزيارة بيت مستر "باركيس"، وهناك شاهدت "بيجوتي" وكانت منهمكة في إعداد وطهي طعام العشاء، سألتها:

- هل مستر "باركيس" موجود بالبيت..؟

فأجابت دون أن يبدو عليها أنها عرفتني:

- نعم .. هو بالبيت.. ولكنه يرقد على سريره مريضاً!

ولكنها تنبهت بعد ذلك إلى وجودي، فخطت خطوة إلى الوراء وصاحت في لهفة:

- أوه .. يا بني العزيز!!

وفي لمح البصر كان كل منا بين أحضان الآخر..

ثم صعدت إلى حجرة النوم بالطابق العلوي.. وفرح "باركيس" بحضوري لزيارته..

كان راقداً على ظهره فوق السرير لا يتحرك إلا بصعوبة شديدة، ولكنه قادراً على الكلام بشكل متواصل، وبينما كان يحدثني، جمع كل قواه، وأمسك بعصا كانت مسنودة إلى جانب السرير، ثم مدها إلى تحت السرير ليتحسس بها صندوقاً كان موضوعاً في ذلك المكان، وبعد أن تأكد من وجود الصندوق في مكانه، فاض وجهه بالبشر والفرح، **وقال لي:**

- ملابس قديمة .. ليس في هذا الصندوق سوى بعض الملابس القديمة.. كنت أتمنى أن يكون مملوءاً بالنقود..!
- وأنا أيضاً أتمنى لك نفس الأمنية.
- شكراً.. ولكن ليس فيه الآن إلا بعض الملابس القديمة.

وبعد أن غادرنا الغرفة، شرحت لي "بيجوتي" كيف يحافظ "باركيس" على أمواله.. وأن أشد اللحظات ألماً بالنسبة له، تكون حين يحتاج البيت إلى بعض النقود. فيضطر عندئذ إلى فتح الصندوق لإخراج النقود المطلوبة، وقلبه يكاد أن ينفطر حزناً وألماً..!

وبعد العصر، قابلت "ستيرفورث" وصحبته معي لزيارة بيت مستر "بيجوتي"، واستقبلنا الجميع بفرح وسرور بالغ، وكان أكثرهم فرحا مستر "بيجوتي" الذي **صاح بي قائلاً**:

- هذا شيء مدهش.. مصادفة سعيدة أن تحضر لزيارتنا هذه الليلة بالذات.. فهذه الليلة دون كل الليالي، هي أسعد ليالينا كلها.. فقد طلب "هام" من "اميلي" الصغيرة أن تتزوجه!!

دق قلبي بشدة حين كنت أسمع هذه الأخبار.. وحين رأيت السرور باديا على وجه "هام" بعد أن فاز بتلك المخلوقة الصغيرة الجميلة.. وأحسست بقصة مؤلمة في قلبي بعد أن تبين لي إني ما زلت أحب "اميلي" الصغيرة.. ولكن كل أمل في هذا الحب قد تبدد في لحظة خاطفة.

لزمت الصمت تماماً، ولم أعرف ماذا أقول في تلك المناسبة الحافلة بالمشاعر.. ولكن "ستيرفورث" قال الكلمات الصحيحة التي يجب أن تقال في مثل تلك المناسبات:

- مستر "بيجوتي".. إنك رجل طيب ولك كل الحق في أن تكون سعيداً كل هذه السعادة في هذه الليلة.. أما أنت يا "هام".. فإني أتمنى لك السعادة والفرح..

وجلسنا جميعاً حول نار المدفأة.. وأخذ "ستيرفورث" يحدث "اميلي" الصغيرة عن المراكب والصيادين والسمك.. ثم أخذ يحدث مستر "بيجوتي" عن الفترة التي قضيناها سويا في مدرسة **سالم هاوس**.

وطوال هذه الأحاديث، كانت "اميلي" الصغيرة تنظر إلى "ستيرفورث" باهتمام، وتنصت بإمعان إلى كل كلمة قالها.. لقد ثبتت عينيها عليه وكأنها لم تكن ترى أحد سواء!

وامتدت بنا السهرة إلى قرب منتصف الليل.. وقبل أن ننصرف، تهيأ الجميع لتوديعنا عند باب البيت.. ثم ظلوا يراقبوننا حتى تلاشى منظرنا في ظلام الطريق.

ووضع "ستيرفورث" ذراعه في ذراعي وسرنا

وبعد لحظة **قال "ستيرفورث"**:

- كم هي جميلة تلك البنت الصغيرة.. أنهم ناس مدهشون.. يعيشون في مكان غريب وبيت غريب.. إني سعيد بتعرفي واختلاطي بمثل هؤلاء الناس.. ومن حسن حظنا أننا وصلنا إليهم في ليلة تتألق فيها سعادتهم.. ولكني لاحظت أن "هام" لا يثير اهتمام الفتاة.. وأعتقد أنها غير فرحة به.. أليس كذلك..؟!

أدهشني سماع تلك الكلمات.. ولكني لاحظت أن "ستيرفورث" يضحك بعد أن قال كلماته.. فقلت له وأنا أحاول أن أتجاوز تلك الدهشة:

- "ستيرفورث".. إني أعرفك جيداً.. إنك تحاول أن تخفي طيبتك وراء الضحك.. وأنا سعيد لأنك تعرفت على هؤلاء الناس البسطاء وهم يعيشون أسعد أوقاتهم..

23 ـ فـــي يـــارمـــاوث:

قضينا أنا و"ستيرفورث" نحو ثلاثة أسابيع في تلك المنطقة.. وفي بعض الأحيان كنا نخرج إلى البحر مع مستر "بيجوتي" في مركبه، ولكني لم أكن أرى "ستيرفورث" كثيراً، فقد كنت أذهب في أغلب الأوقات لزيارة الأماكن القديمة والأصدقاء القدامى الذين كنت أعرفهم جيداً وكانت تربطني بهم ذكريات ماضية.

ذهبت لزيارة بيتنا القديم.. لقد جفت الحديقة ولم يعد يعتني بها أحد.. وتساقطت الكثير من أشجارها أو اجتثت!

وفي إحدى المرات عدت متأخراً أكثر من المعتاد في بيت مستر "بيجوتي"، فلاحظت أن "ستيرفورث" كان لم يزل جالساً أمام المدفأة ومستغرقاً في تفكير عميق، فتقدمت إليه وضعت يدي على كتفه، فهب واقفاً وقال وقد أخذته المفاجأة:

- أوه .. لقد جئت كما يأتي الشبح!

فقلت له:

- أرى إني أخرجتك من أحلام كنت مستغرقاً فيها.

فقال بنبرة لا تخلو من الحزن:

- كنت أتخيل في لهيب النار صوراً تكاد أن تكون حية.. كنت أفكر في أن كل الناس الذين نراهم الآن سعداء.. سيأتي يوم يتفرقون فيه أو يموتون..كنت أتمنى وأنا جالس وحدي هكذا لو كان لي أب حكيم ينصحني أو يرشدني خلال العشرين عاماً الماضية.. ولكن علي أن أنصح نفسي بنفسي.. وكم أتمنى أن أنجح في ذلك!

لقد اندهشت لحزنه، وسألته السبب في تلك الحالة، ولكنه أخذ يضحك وهو يأخذ بذراعي وبهم باصطحابي إلى خارج البيت، **وقال**:

- أبداً .. لا شيء .. لا شيء بالمرة!

ومرت لحظة ثم قال مواصلاً الحديث:

- هل تعلم إني اشتريت قارباً سأقوم بتشغيله في هذه المنطقة..؟!

فصحت مندهشاً:

- يالك من شخص غريب يا "ستيرفورث" ..لماذا فعلت ذلك.. وربما لا ترغب في زيارة هذه المنطقة مرة أخرى؟!

فقال على الفور:

- لا.. صدقني.. لقد أحببت المكان.. واشتريت القارب لأظل بهذه المنطقة ..وسيقوم مستر "بيجوتي" بالعناية به وتشغيله في الفترات التي لا أكون فيها هنا.. ولابد أن أعيد طلاء القارب.. وسأكلف "ليتيمر" أن يقوم بهذا العمل.. هل تعلم بأنه جاء إلى هنا..؟
- لا..
- لقد وصل هذا الصباح.. إن القارب اسمه الآن "طائرة العاصفة".. وسوف أطلق عليه اسماً جديداً..
- ماذا تنوي أإن تسميه..؟
- سأسميه "اميلي الصغيرة"..!!
- ولكن .. أين ذهبوا جميعاً.. إني لا أرى أحد منهم في البيت؟!

فقال ستيرفورث فجأة:

- ها هم.. انظر هناك.. لقد عادت "اميلي" الصغيرة "الأصلية".. ومعها "هام"..

وعندما رأت "اميلي" الصغيرة "ستيرفورث" عن بعد، أنزلت ذراعها من ذراع "هام".. وسارت وحدها وظهر عليها شيء من الاضطراب.

وفجأة ظهرت سيدة شابة.. كانت تبدو وكأنها تتبع خطوات "اميلي" و"هام".. وكانت ترتدي ملابس رثة فقيرة.. وتظهر في وجهها ملامح حزينة، **فقال "ستيرفورث":**

- إني مندهش .. من هي هذه المرأة ذات الظل الأسود .. ولماذا تتبع خطوات الفتاة.. ماذا يعني هذا.. ومن أين جاءت هذه المرأة..؟!

وكنا قد وصلنا إلى الحانة، فدخلنا وتناولنا طعام عشاءنا.. وبعد أن انتهينا من ذلك.. وصل "ليتيمر" **وقال:**

- لقد وصلت مس "ماوشير" إلى هنا..

فتساءل "ستيرفورث":

- وماذا تفعل هنا..

فأجاب "ليتيمر":

- يبدو أنها تعمل في هذه المنطقة أيضاً.

وفتح باب الحانة، ودخلت امرأة ضئيلة الجسم، في حوالي الأربعين أو الخامسة الأربعين من عمرها.. فاستدعاها "ستيرفورث" لكي تقص له شعره.. فهي حلاقة تمتهن حرفة العناية بشعر الرجال والسيدات وكانت تحمل حقيبة أخرجت منها مجموعة من الزجاجات وعدة أشياء أخرى، وشرعت على الفور في عملها.. ولكنها لم تتوقف عن الحديث لحظة واحدة.. وأخذت تحكي قصصاً وأخباراً عن جميع السيدات الجميلات من زبائنها، ولكنها قالت:

- أه يبدو إني لن أجد عملاً هنا .... فلم أر أية سيدة جميلة منذ أن وصلت إلى هنا..

فقال "ستيرفورث":

- أعتقد أن باستطاعتنا أن نريها إحدى الجميلات اللاتي يعشن في هذه المنطقة.

فقالت مصدقاً على قوله:

- نعم .. إنها شابة جميلة.. اسمها "اميلي" .. يا مس "مارشير".

فقالت الحلاقة: أهاه!

ولم استرح إلى منظر هذه الحلاقة ولا إلى طريقتها في الكلام.. ولذلك فقد قلت بنغمة أكثر جدية:

- إنها حقاً جميلة، ولكنها طيبة.. ولقد وعدت بالزواج شخصاً من مستواها ويناسبها تماماً.. اسمه "هام".

فقالت مس "ماوشير":

- أوه.. حقاً.. هذا شيء رائع!

وجمعت الحلاقة زجاجاتها وأدواتها ووضعتها في الحقيبة.. وأعطاها "ستيرفورث" أجرها.. ثم انصرفت وهي تواصل الكلام حتى آخر لحظة.

وذهبت بعد ذلك إلى بيت مستر "باركيس".. واندهشت عندما رأيت "هام" يتمشى جيئة وذهاباً خارج البيت. **وقال عندما رآني:**

- إن "اميلي" بداخل البيت.. إنها تتحدث مع إنسانة كانت تعرفها في الماضي.. ولا يجب أن تعرفها الآن.. امرأة مسكينة يا مستر "دافيد".. والناس في هذه المدينة الصغيرة لا يعرفون عنها شيئاً..
- لقد رأيت هذه المرأة.. وكانت تتبع خطواتكما.
- أوه.. نعم.. لقد وقفت تحت نافذة "اميلي" ونادت عليها: اميلي..اميلي.. أشفقي علي .. لقد كنا زميلتين نعيش سوياً نفس الحياة! فطلت "اميلي"

من النافذة وقالت: من.. أهذه أنت يا "مارتا"؟ لقد كانت "اميلي" تعمل مع "مارتا" هذه في متجر مستر "أرمار".. ورتبت "اميلي" أن تلتقي مع "مارتا" هنا..في هذا البيت.

وانفتح باب البيت وظهرت "بيجوتي".. واستدعت "هام" لدخول .. وكانت تبكي.. وكذلك كانت تفعل "اميلي".. **وقالت لـ"هام":**

- إنها تريد الذهاب إلى **لندن**..

فأعطاها "هام" بعض النقود .. وهبت "مارتا" واقفة وكانت تحاول أن تتكلم بشيء.. ولكنها لم تفعل ولم تستطع.. وانصرفت وهي تبكي..

24 ـ حفلـــة مـــرحة:

رتبت عمتي أمر تدريبي على أعمال المحاماة لدى مكتب.. "سنبلو وجوركينز"، **بلندن**.. ودفعت للمكتب أجر تعليمي هذا العمل.

وهكذا أصبحت أعيش في شقة مستقلة تقع بمبنى مجاور للمكتب.. وكم هو جميل أن يشعر الإنسان أنه يعيش في مكان مستقل لا يشاركه فيه أحد.. ولكن وبالرغم من ذلك فقد كنت أشعر كثيراً بقسوة الوحدة..

وذات صباح فوجئت بحضور "ستيرفورث"، **فصحت فيه مرحباً**:

- عزيزتي "ستيرفورث".. كنت أظن أني لن أراك أبداً.. هل تبقي لتتناول الإفطار معي..؟
- لا لا .. لا أستطيع .. فأنا على موعد مع بعض الأصدقاء.
- ستحضر إذن لتتناول معي طعام العشاء؟!
- لا أستطيع.. فلابد أن أقضي الليلة مع اثنين من أصدقائي...
- ولماذا لا تدعو صديقيك لنتناول العشاء جميعاً هنا..؟!

فوافق..

وهكذا أعددنا حفل عشاء مرحة، تناولنا فيها الكثير من النبيذ.. وأفرطت في الشراب حتى أصبحت أكثر مرحاً وابتهاجاً.. وألقيت خطبة.. كما ألقى "ستيرفورث" خطبة أخرى .. ثم شربنا نخب الجميع فرداً فردا..

ثم توجهنا جميعاً إلى المسرح.. وهناك رأيت "أجنس".. وعندما التقت عيوننا، لاحظت ملامح الحزن والدهشة تتبدى واضحة على وجهها، ومع ذلك فقد **صحت مهللاً**:

- أجنس.. أجنس .. هذا شيء عظيما أرى أجنس!!

فقالت على الفور محاولة إسكاتي:

- الصمت .. لا تصنع كل هذه الضجة..

فصحت مندهشاً:

- أجنس..؟!

فقالت بصوت منخفض:

- إنك في حالة غير طيبة.. اسمع .. إن عليك أن تنصرف الآن..!

فقلت بصوت غبي:

- انصرف الآن.. لماذا؟!

قالت بحزم:

- اسمع.. إني أعرف أنك ستطيعني.. عليك أن تنصرف الآن.. أطلب من أصدقائك أن يصحبوك إلى بيتك.

وفي صباح اليوم التالي، وبينما كنت أتأهب للخروج من البيت، تلقيت رسالة من "أجنس":

"عزيزي "تروتوود":

إني أقيم مع مستر ومسز "ووتربروك"، في **ايلتج بليس**، **هوليورن**.. هل تأتي لزيارتي اليوم؟"

وكتبت خمس أو ست إجابات على تلك الرسالة.. محاولا الاعتذار وإبداء الأسف على ما حدث مني ليلة الأمس بالمسرح.. **وأخيراً كتبت:**

"عزيزتي أجنس":

سأحضر في الساعة الرابعة بعد الظهر"

وفي الساعة الرابعة تماماً، دخلت إلى حجرة الاستقبال حيث كانت "أجنس" جالسة في هدوء وفي حالة طيبة، **فبادرتها باعتذاري وأسفي:**

- كنت أتمنى ألا تريني في الحالة التي كنت بها ليلة الأمس..أنت دون كل الناس..

فوضعت يدها على ذراعي **وقالت:**

- اجلس ولا تكن تعيساً هكذا.. إذا كنت لا تثق بي، فمن ذا الذي ستثق به إذن..؟!
- أوه يا "أجنس".. أنت خير أصدقائي!
- إذا كنت خير أصدقائك حقاً يا "تروتوود".. فهناك شيء أريد أن تتنبه إليه جيداً.. أريد أن أحذرك من ألد وأسوأ أعدائك.. أقصد "ستيرفورث".. فإن له تأثيراً عليك في غاية السوء..!

فقلت لها مندهشاً:

- يا عزيزتي "أجنس".. إنك تظلمينه بمثل هذا الظن.. فليس من العدل أن تحكمي عليه بهذا الحكم بسبب ما حدث ليلة الأمس..
- ليس لهذا السبب وحده.. بل هناك أسباب أخرى غير ذلك..

ثم صمتت لحظة **وقالت:**

- يجب ألا تنسني.. يجب ألا تنسى أنك وعدتني بأنك سوف تخبرني إذا وقعت في مشكلة أو وقعت في الحب..!

ثم سألتني إن كنت قد رأيت "يورياه" **وهي تقول في نفس الوقت:**

- إني متأكدة من أنه سيصبح شريكاً لأبي في المكتب!

فصحت مندهشاً:

- ماذا؟!.. هل سيصبح هذا الشخص شريكاً لأبيك في مكتبه..؟!

فقالت "أجنس":

- نعم.. وأنا أخشى أن يكون ذلك على غير رغبة أبي.. لقد أصبح أبي يخاف منه.. أنه قد سيطر على أبي تماماً.. لقد بدأ أبي يفقد اهتمامه بالعمل رويدا رويدا.. وأصبح لا يهتم إلا بي أنا وحدي.. حتى أصبحت أحس بأنني السبب فيما لحقه من فشل في عمله..

وبعد ذلك بعدة أيام دعيت لحضور حفلة في **ووتربروكس**.. وقابلت "يورياه" هناك.. وظل ملازماً لي منذ بداية الحفلة حتى نهايتها وحتى انصرفت. وكانت "أجنس" قد طلبت مني أن أكون لطيفاً معه. ولذلك فقد صحبته إلى شقتي. حيث قدمت إليه بعض القهوة.

وقال "يورياه" بطريقته المعروفة:

- أوه يا مستر "كوبرفيلد".. ؟ أراك تقوم بخدمتي وتقديم القهوة إلى بنفسك.. إن هذا أكثر مما أتوقعه. ولكن على أية حال فقد حدثت أشياء كثيرة لم أكن أتوقعها.. إني أتمنى أن أكون قادراً على معاونة مستر "ويكفيلد".. لقد أصبح غير عاقل بالمرة.. ولو كان هناك شخص آخر غيري يعمل مع مستر "ويكفيلد" خلال السنوات القليلة الماضية. لكان قد سيطر عليه تماماً..

وعندما كان يقول هذه الجملة الأخيرة، أغلق قبضة يده بقوة، وكأنه يعصر شيئاً بين أصابعه.. ولذلك فقد كرهته..

ثم عاود "يورياه" حديث قائلاً:

- إن مس "أجنس" كانت جميلة جداً هذه الليلة!

فقلت مصدقاً على كلامه:

- أنها تبدو هكذا دائماً.. أنبل وأجمل من أية آنسة أو سيدة تكون بجانبها أينما كانت!

فقال "يورياه":

- شكراً لك!

فقلت له على الفور:

- ليس هناك سبب لتشكرني على ذلك.

قال:

- هناك سر سأخبرك به.. فبالرغم من أني شخص متواضع وبسيط.. فإني أعشق التراب الذي تسير عليه عزيزتي "أجنس"!

وتمنيت لو إني قتلته بعد أن قال هذه الكلمات.. ولكنه استمر في حديثه:

- إنها تحب أباها حباً جماً.. ولأجل ذلك فإني أتوقع أن تستجيب لي وتعطف علي.

وهكذا اكتشفت خطته.. فقد سيطر "يورياه" على مستر "ويكفيلد" تماماً حتى يجبره على أن يعطيه "أجنس" زوجة له.. **واستمر "يورياه" في الحديث:**

- ولكن لا داعي للعجلة في هذا الأمر.. أن عزيزي "أجنس" ما زالت صغيرة..

وفي تلك الليلة نام "يورياه" على مقعد في غرفة الجلوس بشقتي.. وحلمت بأن "أجنس" تتوسل إلي لكي أنقذها من هذا المصير..

وعندما استيقظت في صباح اليوم التالي، دخلت فوراً إلى غرفة الجلوس، فرأيت "يورياه" ما زال ممدداً فوق المقعد.. تتدلى ساقاه على الأرض.. وفمه مفتوح عن آخره..

وكان بوسعي أن أقتله..!!

25 ـ دورا..

في كل يوم كنت أذهب إلى مكتب مستر "سبنلو" للتدريب على العمل، وبعد مضي بعض الوقت، دعاني مستر "سبنلو" للذهاب معه إلى بيته الريفي، وعندما وصلنا سأل مستر "سبنلو" أحد الخدم:

- أين مس "دورا"..؟

فقلت في نفسي:

- "دورا"؟ ياله من اسم جميل!

وعندما دخلنا إلى أقرب حجرة بالبيت، **قال لي مستر "سبنلو":**

- مستر "كوبرفيلد".. هذه هي ابنتي "دورا"..

ما إن وقعت عيني عليها حتى أحببتها بجنون من أول مرة.. وأشار إلى سيدة أخرى **وقال:**

- وهذه صديقة لابنتي..

فقالت السيدة:

- إني أعرف مستر "كوبرفيلد" من قبل..!

كانت هذه السيدة هي مس "ماردستون"!!

وفي صباح اليوم التالي، استيقظت مبكراً وخرجت إلى الحديقة، وهناك **قابلت "دورا"، فقالت:**

- لقد خرجت إلى الحديقة مبكرة يا مس "سبنلو".

فأجابت بنعومة:

- نعم.. ففي صباح كل أحد.. لا أواظب على تمريناتي الموسيقية.. إن الصباح هو أشرق أوقات اليوم..

فقلت:

- وهذا الصباح هو أشرق الأوقات كلها .. بالنسبة لي!

ومن أحد ممرات الحديقة.. جاء كلب صغير يجري نحو "دورا".. فرفعته بيديها وضمته إلى صدرها.. فقلت في نفسي: كم هو محظوظ هذا الكلب!

ومضى النهار كله جميلاً هادئاً.. حيث خرجنا جميعاً للنزهة.. وفي فترة المساء جلسنا في حجرة المعيشة نقرأ في بعض الكتب ونشاهد بعض الصور.. وقبل أن أتوجه لحجرة النوم ألقيت تحية المساء على مستر "سبنلو" وقلت له: تصبح على خير..

ولم يعرف مستر "سبنلو" آنئذ، إني أصبحت أنظر إليه باعتباره والداً لزوجتي مستقبلاً..!!

26 ـ ستيرفورث يعود:

عدت إلى شقتي بلندن.. وجاء مستر ومسز "ميكاوبر" لتناول العشاء معي.. وكانت حفلة ممتعة بهيجة، وكنت قد قابلت "ترادلز" صديق طفولتي وزميلي في مدرسة **سالم هاوس**، فدعوته للحضور إلى تلك الحفلة فلبى الدعوة وازدادت بهجتنا.. وفجأة دق الباب.. ودخل "ليتيمر" خادم "ستيرفورث"، **فسألته مندهشاً:**

- ما الأمر.. ماذا حصل؟

فأجاب بهدوئه المعتاد:

- عفوك يا سيدي.. لقد أمرت بأن أحضر إلى هنا..
- وهل سيدك هنا..؟
- لا يا سيدي..
- هل رأيته هنا..؟
- عفوك يا سيدي!
- هل سيحضر مستر "ستيرفورث" من **أكسفورد**؟

فتحاشى الإجابة على سؤالي **وقال:**

- أظن أنه سيحضر إلى هنا غداً..

فسألته محاولاً معرفة المزيد بوضوح:

- "ليتيمر" .. هل بقيت طويلاً في **يارماوث**؟
- "ليتيمر" .. هل بقيت طويلاً في **يارماوث**؟
- لا يا سيدي.. ليس طويلاً جداً..
- وهل انتهيت من أعداد القارب الذي اشتراه مستر "ستيرفورث"؟

- نعم يا سيدي..
- وهل رأى مستر "ستيرفورث" القارب بعد أعداده؟
- لا أستطيع أن أقول يا سيدي.. تصبحوا جميعاً على خير!

وانصرف.. وارتحنا جميعاً لانصرافه.. ولم أعد أثق في هذا الرجل.

وبعد أن انتهت الحفلة وانفض الجمع.. جلست وحيداً بجوار المدفأة وأنا أفكر في أمر مستر ومسز "ميكاوبر".. وفجأة سمعت وقع خطوات صاعدة على السلم.. وظننت في البداية أن القادم هو "ترادلز".. ولكني تبينت بعد ذلك أنه "ستيرفورث"، الذي **قال فوراً أن رآني**:

- أراك عدت إلى عمل الحفلات من جديد.. لقد رأيت ضيوفك وهم يتحدثون بصوت مرتفع عن كرمك وفضلك ويثنون عليك..

وقدمت إليه بعض الطعام.. فجلس إلى المائدة **وهو يقول**:

- ها هو عشاء يليق بملك..!

ثم أضاف بعد لحظة:

- لقد جئت قادماً من **يارماوث**..
- ظننتك قادما من **أكسفورد**..

فقال وهو يواصل تناول الطعام:

- لا.. لقد استخدمت القارب الذي اشتريته.. على فكرة.. معي خطاب مرسل إليك .. إن مستر "باركيس" العجوز مريض جداً..

وناولني الخطاب، فقرأته على الفور، **وقلت**:

- أعتقد أن من الضروري أن أذهب لأراهم!

وعندما تهيأ "ستيرفورث" للانصراف **قلت له مودعاً**:

- تصبح على خير يا عزيزي "ستيرفورث".. إني ذاهب لرؤيتهم غداً.

ووضع كلتا يديه فوق كتفي **وقال قبل أن ينصرف**:

- تصبح على خير.. ولكن إذا حصل أي شيء يفرقنا.. فأرجو أن تفكر في حسناتي دون سيئاتي!

فقلت له:

- كلك حسنات بالنسبة لي..

فقال:

- ليباركك الله.. وتصبح على خير..!

27 ـ باركيس يذهب مع الموج..

وصلت إلى **يارماوث**.. وتلقتني "بيجوتي" بين ذراعيها.. شاكرة لي حضوري لزيارتها في هذا الوقت العصيب.. وشكرتني على ذلك مرات ومرات.. وقالت إن مجرد حضوري قد سبب لها الكثير من الراحة والسكينة.. وإن مستر "باركيس" يشعر نحوي بكثير من الحب والتقدير، وإنه يتحدث عني دائماً بكلام طيب.. وقالت أيضاً أنه الآن مستغرق في النوم، ولكنه عندما يستيقظ ويراني سيسعد كثيراً وتعود إليه بهجته..

ولكن رداً واضحاً أنه لا يوجد شيء في الدنيا يمكن أن يعيد البهجة إلى مستر "باركيس".. لقد كان في دور الاحتضار.. يرقد غائباً عن الوعي وقد أسند رأسه وكتفيه على مقعد بجانب السرير، بينما بقية جسمه ممدة في ضعف على السرير، وعلى المقعد كانت ذراعاه تحيطان بصندوقه العتيد الذي كان يقول دائماً أن محتوياته مجرد، ملابس قديمة"..

لقد أصبح الآن ضعيفاً غير قادر على الحركة.. أصبح عاجزاً عن الإمساك بالعصا التي كان يتحسس به صندوقه العتيد الموضوع تحت سريره، لذلك فقد طلب منهم أن يضعوا الصندوق على ذلك المقعد الملاصق للسرير حتى يصبح أقرب ما يكون إليه..

وها هو ذا راقد على السرير يحتضر في هدوء.. ويحاول أن يحتضن صندوقه في يأس وبلا عافية.. والحياة تتسلل في بطء خارجة من جسده الواهن الضعيف.. وكانت آخر كلماته التي سمعناها بوضوح "مجرد ملابس قديمة"..

وقالت "بيجوتي" بصوت حزين:

- "باركيس".. يا عزيزي.. ها هو مستر "دافيد" قد جاء ليراك.. "باركيس".. هل تريد أن تتحدث إليه..؟!

ولكن الصمت العميق كان يلفه.. وجاهد بآخر أنفاسه لكي يقول شيئاً.. ونطق بالفعل بقليل من الكلمات المتقطعة غير الموصولة.. عن ذكرى قيادته للعربة عندما كان يأخذني إلى المدرسة..

وفجأة فتح عينيه.. والتفت نحوي.. وأضاء وجهه بابتسامة راضية **وقال في وحن وبصوت ضعيف لا يكاد يسمع:**

- "باركيس مستعد"..!!

وكما تزحف الموجة على رمال الشاطئ، ثم تنسحب عائدة إلى أعماق البحر.. ذهب "باركيس" مع الموج.. ولكن بلا عودة..!

28 ـ هروب اميلي:

كان المطر ينهمر بشدة حين كنت متوجهاً نحو بيت عائلة "بيجوتي".. وكان القمر مختفياً وراء السحب.. ورأيت ضوءاً يتسلل من إحدى نوافذ البيت.. وطرقت الباب..

كان مستر "بيجوتي" جالساً بجوار المدفأة يدخن غليونه.. وكانت "بيجوتي" جالسة بجواره تخيط بعض الملابس.. أما مسز "جاميدج" فقد كانت جالسة في صمت في ركن من الغرفة.

قالت موجهاً الحديث إلى "بيجوتي":

- والآن يا عزيزتي.. كيف حالك؟!

فقال مستر "بيجوتي" كما لو كان يحرص على الإجابة بدلاً من أخته:

- لقد تقبلت الأمر ببساطة.. لقد أدت واجبها نحو "باركيس".. كما أن "باركيس" قد أدى واجبه نحوها، والأحوال على ما يرام..!!

ثم قام.. وأحضر شمعة أشعلها ووضعها خلف زجاج النافذة، **وقال بصوت ملؤه الصدق:**

- إني أشعل هذه الشمعة كل مساء لترشد صغيرتنا "اميلي" حين تعود من عملها إلى البيت.. وسأظل أشعل شمعة كل يوم في مثل هذا الوقت حتى بعد أن تتزوج "اميلي" من "هام" ويصبح لهما بيت مستقل. سأشعل الشمعة كل مساء وسأجلس هنا بجوار المدفأة وأتظاهر بأني انتظر قدومها.. تماماً مثلما أفعل الآن، فكلما أرى هذه الشمعة مضاءة خلف الزجاج.. أقول لنفسي أن "اميلي" ترى نورها وهي عائدة إلى البيت.. ولكن أثبت لك قولي، أنظر الآن.. ها هي "اميلي" قد وصلت..!
- ولكن الذي وصل، كان هام وحده..

فسأله مستر "بيجوتي" مستفسراً:

- "هام".. أين "اميلي"؟!

فعمل "هام" حركة برأسه.. كما لو كان يريد أن يقول أنها بالخارج.. ثم تقدم "هام" إلي **وقال:**

- مستر "دافيد".. هل تسمح بالخروج معي دقيقة واحد لترى ماذا أحضرنا لك أنا و"اميلي"..؟!

وعندما خرجت معه من باب البيت..لاحظت أن وجهه شاحب شديد البياض.. وأسرع يغلق الباب وانفجر في البكاء **فسألته ملتاعاً:**

- "هام".. ماذا حدث؟!

وارتفع بكاؤه أكثر وأكثر **وهو يقول:**

- مستر دافيد.. مستر دافيد!
- "هام" أيها الصديق المسكين.. أخبرني ماذا حدث!

عندئذ تحامل على نفسه **وقال في يأس:**

- حبي يا مستر "دافيد".. عروسي التي كانت أملاً لقلبي.. "اميلي" الصغيرة.. لقد هربت!!
- هربت..؟!
- نعم يا مستر "دافيد".. هربت.. أخبرني بالله عليك.. ماذا أقول لهم.. ماذا أقول للناس..؟!

وهنا فتح الباب وخرج إلينا مستر "بيجوتي".. ولن أنسى ما حييت ذلك الشحوب الذي بان على وجهه.. ولا منظره حين أخذ يصيح ويهدد جميع النساء..

وقفت حائراً لا أدري ماذا أقول أو ماذا أفعل.. وكنت ممسكاً بيدي الرسالة التي أعطاني إياها "هام" حين كنا خارج البيت.. وبعد فترة من الصمت الحزين **قال "هام"**:

- اقرأ الرسالة يا سيدي.

وبعد صمت يشبه الموت.. بدأت اقرأ ببطء:

"عندما تقرأ يا من تحبني كثيراً هذه الرسالة سأكون قد ابتعدت بعيداً.. ولن أعود إلا إذا عاد هو بي بعد أن أصبح سيدة..

قل لعمي أني لم أكن أحبه كثيراً.. ومع ذلك أرجوك أن تعمل على راحته.. وجرب حظك في الحب مرة أخرى مع فتاة طيبة تكون صادقة معك..

بارك الله فيكم جميعاً..وإني أصلي من أجلكم راكعة على ركبتي.. وإذا لم يعد بي بعد أن أصبح سيدة، فلن أصلي من أجل نفسي.. وإنما سوف أصلي للجميع..

وأبعد مستر "بيجوتي" عينيه عن وجهي كما لو كان قد أفاق من حلم رهيب. **ثم قال بصوت منخفض يبدو كالهمس**:

- من هو الرجل؟ .. أريد أن أعرف اسمه..

فقال بصوت منكسر:

- إني لا ألومك يا مستر "دافيد".. لأن الرجل اسمه "ستيرفورث".

وعلى الفور ارتدي مستر "بيجوتي" معطفه. **وقال لـ"هام"**:

- أعطني القبعة!

فسأله "هام" عما ينتوي.. وإلى أين سيذهب. **فقال بإصرار**:

- سأذهب للبحث عن "اميلي".. ولكني سأذهب أولاً لأحطم ذلك القارب اللعين.. وبعد ذلك سأذهب للبحث عنها..

فسأله "هام":

- أين..؟

فأجاب بمزيد من الإصرار:

- في أي مكان.. وفي كل مكان في هذا العالم.. سوف أجدها.. سوف أعيدها إلى هنا..!

29 – مستر بيجوتي ومسز ستيرفورث:

في صباح اليوم التالي عدت إلى **لندن**.. وصحبني مستر "بيجوتي" بعد أن طلب مني أن أتوسط له لمقابلة مسز "ستيرفورث" والدة "ستيرفورث"، فتوجهت إليها طالباً السماح برؤية مستر "بيجوتي" ووصفته بأنه رجل طيب ولطيف ولديه مشكلة يريد أن يعرضها عليها، فسمحت له بالدخول..

كانت مسز "ستيرفورث" جالسة على مقعد وثير.. وكانت "روزا دارتل" واقفة خلفها.. ونظرت إلى مستر "بيجوتي" ونظر مستر "بيجوتي" إليها.. ثم أشارت إليه بالجلوس **فقال معتذرا**:

- لا.. سأظل واقفاً!

ثم أخرج من جيبه الرسالة التي تركتها "اميلي" وقدمها إلى مسز "ستيرفورث" **وقال لها:**

- أرجوك أن تقرئي هذه الرسالة.. سيدتي!

وبعد أن قرأتها سألها مستر "بيجوتي" وهو يشير إلى جملة "بعد أن أصبح سيدة":

- هل سيحفظ وعده يتزوجها..؟!

فأجابت مسز "ستيرفورث" بحزم:

- لا.. طبعاً..!

فسألها مستر "بيجوتي":

- لماذا..؟
- لماذا؟.. لأنها اقل منه مقاماً..
- ولماذا لا ترفعونها إلى مقامكم..؟

- إنها غير متعلمة.. ولم تذهب إلى مدرسة..
- علموها..!
- إنها من عائلة متواضعة وفقيرة جداً..
- اسمعي يا سيدتي.. أنت تعرفين بلا شك مدى حبك لولدك.. ونحن أيضاً نعرف مدى حبنا لأولادنا، ولكنك لا تعرفين كيف يكون حالك عندما تفقدين ولدك.. وأنا أعاهدك بأن نقطع صلتنا بها تماماً ولن نراها أبداً بعد أن يتم الزواج..
- هذا مستحيل.. أن مثل هذا الزواج سيدمر مستقبل ابني.. وسيعرضه للإفلاس والخراب.. ومع ذلك فيمكنني أن أعطيكم بعض.. ..
- تعطينا بعض النقود؟! إن هذا سيكون أسوأ مما فعله ابنك!

وهنا تغيرت ملامح مسز "ستيرفورث" وظهرت على وجهها معالم الغضب.. وفي الحال انحنت "روزا دارتل" التي كانت تقف خلفها وهمست في أذنها ببعض الكلمات ولكن يبدو أنها لم تقبل ما همست به "روزا" في أذنها.

وقالت:

- لا يا "روزا"..لا!

وعندئذ قال مستر "بيجوتي":

- لا يا سيدتي.. ليس هناك داع لأن تقلقي نفسك إلى هذا الحد.. لقد جئت إلى هنا بدون أمل.. وسأخرج من هنا بدون أمل مثلما جئت..!

وخرج مستر "بيجوتي" وخرجت معه.. وتتبعتنا "روزا دارتل"، وسحبتني من ذراعي جانباً، **وقالت ووجهها يحمل كل مظاهر الغضب:**

- لماذا أحضرت هذا الرجل إلى هنا؟.. ألا تعرف أن كلا من مسز "ستيرفورث" وابنها مجنون بالفخر بنفسه وبعائلته.. لماذا أحضرته إلى هنا

إذن؟.. لا هو ولا تلك الفتاة يساوي شيئاً.. بودي لو أكوي وجه تلك الفتاة بالنار.. ثم ألقيها في الشارع.. بودي لو أقتلها..!!

لقد رأيت أنواعاً وأشكالاً من الغضب تتبدى في وجوه الناس.. ولكني لم أر في حياتي غضباً عنيفاً مثل غضبها..!

وعندما لحقت بمستر "بيجوتي" كان يسير آنئذ ببطء هابطا من التل.. **فسألته:**

- والآن.. إلى أين أنت ذاهب..؟

فأجاب بصوت منخفض ولكن فيه الكثير من الإصرار:

- سأذهب للبحث عنها.. مهما بعد بها المكان.. وإذا لحق بها أو بي أي سوء.. فأني أشهدك على أن تتذكر أن آخر كلماتي عنها: إن حبي لها لم يتغير.. وإني سامحتها..!

الجزء الخامس
الـــــــــــزواج

30ـ الخطـــبة:

أخبرني مستر "سبنلو" أن عيد ميلاد ابنته "دورا" سيكون الأسبوع القادم.. وإنه سيكون مسروراً لو قبلت دعوته لحضور حفل عيد ميلادها في بيتهم الريفي.

وفي اليوم المحدد غادرت **لندن** في الصباح الباكر حتى أصل في وقت مناسب، وعندما وصلت إلى البيت، رأيت "دورا" واقفة في الحديقة، ومعها صديقة، شابة اسمها مس "جوليا ميلز".. وكان كلبها الصغير "جيب" واقفاً قرب قدميها.

وطوال اليوم، كان ذهني مشغولاً بشيء واحد هو: "دورا".. أرى صورتها في أشعة الشمس المشرقة.. واسمع صوتها في تغريد الطيور الجميلة..!

جلسنا تحت الأشجار وتناولنا طعامنا.. ثم غفت "دورا" وشدت بصوتها العذب الرائع.. وتناولنا الشاي.. وقبل المغرب عدت إلى البيت راكباً عربة.. وكانت "دورا" بجواري..

وقبل أن أغادر البيت عائداً إلى لندن انتحت بي مس "جوليا ميلز" جانباً وقالت لي:

- مستر "كوبرفيلد".. أريد أن أحدثك في شيء.. أن "دورا" ستقيم عندئذ بعض الوقت ضيفاً علينا.. وأتمنى أن تحضر لزيارتنا!

وبعد أيام قليلة عزمت على زيارة مس "جوليا ميلز" في بيتها حيث تقيم "دورا".. وعزمت في الوقت نفسه على عرض الزواج على "دورا"..

وعندما وصلت كان الاثنتان جالستين في حجرة الاستقبال.. وبعد فترة استأذنت مس "جوليا ميلز" في الخروج من الحجرة وتركتنا وحدنا..

ولا أدري حتى الآن كيف أخبرت "دورا" بحبي لها.. لقد فعلت ذلك في لحظة خاطفة.. قلت لها أني سأموت بدونها..!

31 – الإفـــــلاس:

عدت من زيارة صديقي القديم "ترادلز".. وتوجهت إلى الحجرة التي كنت أقيم فيها أنا و"بيجوتي".. وأصابتني دهشة شديدة حينما رأيت الباب مفتوحاً وسمعت أصواتا كثيرة بالداخل ..

وفوجئت بوجود عمتي ومعها مستر "ديك".. وكانت عمتي جالسة على بعض الصناديق.. أما مستر "ديك" فقد كان ممسكاً بطيارة ورقية كبيرة..

صحت مرحباً:

- أهلاً بعمتي العزيزة.. هذا سرور لم أكن أتوقعه.. هل تذكرين يا عمتي هذه السيدة.. أنها "بيجوتي"..

فقالت عمتي لـ"بيجوتي":

- مرحباً بك.. كيف حالك؟

ثم التفتت إلي قائلة:

- ليس من اللائق أن تدعوها باسمها القديم.. لقد تزوجت وأصبح لها الآن اسم آخر.. هو اسم زوجها[1]...

والتفتت عمتي إلى "بيجوتي" وسألتها:

- ما اسمك الآن..؟

فقالت "بيجوتي":

- باركيس.

وعندئذ قالت عمتي:

- هذا أفضل.. كيف حالك يا "باركيس"..؟!

---

[1] من المألوف في انجلترا أن تترك الزوجة اسم عائلتها وتسمى باسم زوجها واسم عائلته

وتناولنا الشاي.. ومن وقت لآخر كنت ألاحظ أن عمتي تنظر إلي بطريقة غريبة.. وتعجبت من ذلك.. فأنا لم أخبرها بعد بأي شيء عن "دورا".. فهل كان هذا هو السبب..؟!

وأخيراً قالت عمتي:

- "تروت" .. عليك أن تتمالك نفسك وتمسك أعصابك وتسمعني جيداً

فقلت بلا تردد:

- حاضر يا عمتي..
- هل فكرت وسألت نفسك لماذا أنا جالسة هكذا على هذه الصناديق..؟!
- لا يا عمتي.. ولا أعرف لماذا..

فقالت ببساطة وبوضح:

- لأن هذه الصناديق هي كل ما أملك.. لقد أفلست تماما يا عزيزي!.

لو إني سمعت خبراً عن غرق البيت وغرق جميع من فيه.. لما اندهشت بمثل هذه الدهشة!

وواصلت عمتي حديثها:

- "ديك" يعرف ذلك أيضاً.. لقد أفلست.. وأصبح كل ما أملكه في هذا العالم موجوداً في هذه الغرفة.. "باركيس".. هل يمكنك إعداد سرير لينام "ديك".. أي شيء يكفي لهذا الغرض..

ووضعت عمتي ذراعها حول عنقي وقالت أنها لا تأسف لشيء إلا بالنسبة لي وحدي.. ثم أخفت مشاعرها **وقالت مشجعة:**

- يجب أن نتحمل المصاعب ببسالة.. يجب ألا ندع المصاعب تخيفنا أو تقلقنا.. لابد أن نشق حياتنا مهما اكتنفتها من متاعب وصعاب.. يا "تروت"!

32 – لقـــاء مع أجنـــس:

كان أول شيء صممت أن أفعله في صباح اليوم التالي، هو إعفاء نفسي من العمل من مكتب، "سبنلو وجوركينز" وأن أستعيد منها المبلغ الذي دفعته عمتي مقابل تدريبي، وجلست في أحد أركان المكتب في انتظار وصول مستر "سبنلو"، وأفكر في الوقت نفسه في "دورا"..

وعندما وصل مستر "سبنلو وراني" حياني **قائلاً:**

- كيف حالك يا "كوبرفيلد".. إنه صباح جميل أليس كذلك؟!

فقلت:

- نعم.. هو صباح جميل بالفعل.. هل يمكنني أن أتحدث معك قليلاً قبل ذهابك إلى المحكمة..؟
- طبعاً.. لماذا.. تعالى إلى مكتبي..

تبعته إلى حجرة مكتبه، **وقلت له:**

- إني آسف لما سوف أقول.. لقد وصلتني أخبار سيئة من عمتي.. لقد أفلست وفقدت جميع أموالها.. ولذلك فأنا مضطر للانقطاع عن عملي بالمكتب، وأرغب في استرداد ما دفعته عمتي من نقود مقابل تدريبي.

فقال مستر "سبنلو" أسفاً:

- إني أسف لذلك.. ولكن ذلك غير ممكن.. فلو كنت وحدي لكان من الممكن أن أرتب ذلك.. ولكن هناك شريكي في المكتب مستر "جوركينز".
- إذن.. هل تعتقد أني لو حادثت مستر "جوركينز" في الأمر.. سيكون من الممكن تسوية هذا الموضوع.؟

- لا .. لا أعتقد أن مستر "جوركينز" سيوافق على شيء كهذا..

ومع ذلك، صعدت إلى مكتب مستر "جوركينز" في الطابق العلوي.. وشرحت له موضوعي وطلبي.. **وفوجئت بقوله:**

- أعتقد أنك تحدثت في هذا الموضوع مع مستر "سبنلو"..؟
- نعم.. تحدثت معه.. وقال أنه من الممكن أن يوافق على هذا الطلب لولا أن.. ..
- إذا كان مستر "سبنلو" لم يوافق فأنا أيضاً لا أستطيع أن أوافق ..

ولكنه قال ... ...

- إني أسف.. ما دام لم يوافق فأنا لا أوافق.. ولم اكتشف حتى الآن من ذا الذي لم يوافق .. هل هو مستر "سبنلو".. أو مستر "جوركينز"؟!

وبينما كنت أسير حائراً في الشارع، سمعت وقع عجلات عربة صغيرة قادمة من خلفي، وعندما اقتربت مني العربة، رأيت وجهاً جميلاً.. رأيت "أجنس" بنفسها، **فصحت مهللاً:**

- "أجنس".. عزيزتي "أجنس".. يا له من سرور أن أراك هكذا فجأة.. إلى أين تذهبين..؟!

فقالت وهي تنزل من العربة تسير بجانبي:

- إني ذاهبة لزيارة عمتك.. إنني لست وحدي هنا.. معي أبي و"يورياه هيب".
- "يورياه هيب"؟.. عليه اللعنة .. هل أصبح شريك لوالدك في مكتبه..؟
- نعم.. إن له تأثيراً بالغاً على أبي.. لقد حدث تغيير في بيتنا أود أن أخبرك به.. أن "يورياه" وأمه يعيشان معنا الآن في البيت.. وأسوأ ما في هذا

الأمر، إني أصبحت لا أستطيع أن انفرد بالجلوس مع أبي وحدنا كما أعتدنا.. فـ"يورياه هيب" أصبح يفصل بيننا..

كانت عمتي جالسة وحدها عندما وصلنا.. وحكت لها عمتي قصة ما لحق بها من خسائر وكيف خسرت كل أموالها.. **ثم قالت في النهاية**:

- لا أدري ماذا يجب أن نفعل الآن.. فالكوخ لن يدر علينا أكثر من سبعين جنيها كل سنة.. أما "ديك" فلديه مائة جنيه هي كل مدخراته.. ولكنها تخصه وحده..

فقالت "أجنس":

- علمت أن الدكتور قد أغلق مدرسته.. وجاء ليعيش هنا في **لندن**.. وهو يبحث عن شخص يساعده في إعداد كتابه الذي يؤلفه.. واعتقد أن "تروتوود" يمكنه أن يلتحق بهذا العمل..

فصحت فرحاً:

- عزيزي "أجنس".. أنت أفضل أصدقائي!!

وقمت على الفور بكتابة رسالة إلى الدكتور "سترونج" أطلب منه أن يأذن لي بمقابلته في الساعة العاشرة من صباح الغد.

أينما تكون "أجنس".. فإنها تترك لمساتها الحلوة على كل شيء في المكان الذي توجد فيه.. فعندما عدت إلى البيت، رأيت الحجرة مرتبة منظمة، ورأيت قفص الطيور الجميلة الخاصة بعمتي معلقاً على النافذة، ورأيت مقعدي موضوعاً بجوار النافذة بالقرب من مقعد عمتي.. وبينما كنت أتأمل هذه اللمسات الرقيقة، سمعنا طرقاً على الباب، **وعندئذ قالت "أجنس"**:

- أعتقد أن أبي قد وصل.

قمت وفتحت الباب.. ودخل مستر "ويكفيلد" ومعه "يورياه هيب"، وأدهشني التغيير الكبير الذي لحق بمستر "ويكفيلد".. فقد علت وجهه حمرة غير صحية، وازداد ارتعاش يديه.. وفجعت بمنظره هذا.. فقد تيقنت إن الرجل أوشك أن يفقد قواه تماماً، ويعتمد كلية على "يورياه هيب" ذلك المخلوق الانتهازي المتسلق.. تماما مثلما يعهد إنسان إلى قرد ليرعاه ويتولى شئونه!

وقالت عمتي:

- مستر "ويكفيلد".. لقد حدثت ابنتك فيما لحقني من خسارة وما فقدته من أموال.. لقد طلبت منها المشورة والنصيحة.. إني أعتقد أن ابنتك "أجنس" هي أفضل عضو في الشركة.

وهنا قال "يورياه هيب":

- سأكون سعيداً لو أن مس "أجنس" ستصبح شريكة لنا في المكتب.

فقلت له عمتي بشيء من الخشونة:

- لقد أصبحت شريكاً في هذا المكتب.. وهذا يكفيك.. كيف تسير معك الأحوال؟

وأجابها "يورياه" بأن الأحوال تسير بطريقة حسنة.. **ثم قال بعد لحظة:**

- إذا وجدت أنا أو أمي أو مستر "ويكفيلد" أية طريقة لمساعدتك.. فإن ذلك سيكون من دواعي سرورنا.

وقال مستر "ويكفيلد" بصوت منخفض:

- إن "يورياه هيب" نشيط في عمله.. وأنا أوافق على ما يقول.

وقال "يورياه هيب":

- إني سعيدة بهذه الثقة!

وهنا قالت "أجنس" لأبيها:

- ما رأيك يا أبي أن تخرج في نزهة معي أنا و"تروتوود"..؟!

فقال "يورياه هيب":

- لدى بعض الأعمال.. ولذلك فسوف أترك مستر "ويكفيلد" معكم.

وخرج..

وهكذا أتيح لنا أن نعاود إحساسنا بالسعادة وأنة نتحدث بحرية عن ذكريات أيامنا السعيدة في **كانتربري**.. وعاد مستر "ويكفيلد" إلى حالته الطبيعية السابقة..

وبعد أن تناولنا الطعام معاً جلست "أجنس" بجوار أبيها.. وصبت له كأساً من النبيذ، وعندما حل الظلام رقد نائماً في هدوء..فتسللت "أجنس" من جانبه واتجهت نحو النافذة.. وعندئذ رأيت الدموع تملأ عينيها.

لن أنسى أبداً تلك الصديقة العزيزة.. لقد ملأت قلبي بحب الخير.. وملأت عقلي بالأفكار الطيبة. لقد شجعتني لكي أقوم على ضعفي وانتصر على الصعاب..!

حتى عندما حدثتها عن "دورا".. كانت تنصت إلي وأنا اثنى على "دورا" وأعدد محاسنها.. آه يا "أجنس". يا شقيقة الروح منذ أيام الصبا.. ليتني عرفت الآن كل ما عرفته فيما بعد.. ليتني عرفت ولو لمحة واحدة من ملامح المستقبل!

توجهت في طريقي إلى **هاي جيت**.. وأنا أفكر في حياتي الجديدة التي أتوقعها في الفترة القادمة..وصممت على أن أعرض على الدكتور "سترونج" رغبتي في القيام بعملي فترتين كل يوم مقابل أجر مضاعف حتى أتمكن من مواجهة تكاليف ونفقات حياتي الزوجية.

وبينما كنت في طريقي إلى بيت الدكتور.. شاهدت بيتاً صغيراً يشبه الكوخ معروضاً للبيع.. فتوجهت إليه وتفرجت عليه من الداخل والخارج.. كانت هناك حديقة صغيرة ملحقة به وتصلح في نظري للكلب "جيب" .. واقتنعت أيضاً بأن البيت مناسب تماماً لحياتي الزوجية.. مع "دورا"..

وصلت أخيراً إلى بيت الدكتور "سترونج".. ورأيته واقفاً في الحديقة.. وتهلل وجهه بالبشر حين رآني **وصاح**:

- عزيزي "كوبرفيلد".. إني مسرور لرؤيتك ومسرور أكثر لرغبتك في العمل معي.. ولكن أليس من الأفضل أن تفكر في عمل أحسن من هذا.. أعتقد أن مبلغ السبعين جنيهاً سنوياً مبلغ ضئيل ولا يكفيك..

فقلت له عارضاً فكرتي:

- أعتقد أنك ستعطيني المبلغ مضاعفاً إذا اشتغلت فترتين يومياً.. فترة في الصباح وثانية في المساء.

وبداواضحاً أن الدكتور "سترونج" كان سعيداً بأن أساعده في عمل القاموس الذي يقوم بتأليفه منذ سنوات طويلة.. وكانت جيوبه كلها مملوءة بقطع صغيرة من الاوراق عليها كتابات تخص العمل في هذا القاموس.. واتفقنا على أن نبدأ العمل معا في الساعة السابعة ومن صباح اليوم التالي.

وبعد عدة أيام.. تلقيت رسالة من مستر "ميكاوبر" يدعوني فيها لزيارته في حجرته التي استأجرها في **لندن**.. وكتب في تلك الرسالة: "ستندهش عندما ترى وتسمع أن الأحوال قد تحسنت على نحو أفضل".

وعندما لبيت هذه الدعوة، ووصلت إلى حيث يعيش مستر "ميكاوبر".. لاحظت أن ولديه كانا راقدين على سرير بأحد أركان الغرفة، كما لاحظت أيضاً أنه قد تناول قبل وصولي مشروباً قوياً.. **وقال بعد فترة:**

- سأذهب إلى **كانتربري**.. لقد سألني صديقي "يورياه هيب" أن أعاونه في عمله.. أن صديقي "هيب" رجل راجح العقل واسع الأفق.. إنه لن يعطيني أجراً كبيراً.. بل سيقوم بسداد كل ديوني!

اندهشت كثيراً لدى سماع هذه الأخبار وأخذت أفكر في معناها وفيما ورائها.. **وقالت مسز "ميكاوبر"**:

- إني على يقين من أن "ميكاوبر" لو شغل عقله في الأعمال القانونية فسينجح ويتبوأ مكانة عالية.. وربما يصبح قاضياً.. هل تعتقد أن مستر "ميكاوبر" يستطيع أن يصبح قاضياً..؟

فأجبتها:

- ولما لا..؟!

33 ـ وأخبرت دورا..

وبعد مضى ما يزيد عن أسبوع من حياتي الجديدة كنت أعمل مجداً في فترتي الصباح والمساء..رتبت أمري لزيارة "دورا"، التي لم تكن تعلم شيئاً حتى الآن عن خسارة عمتي وفقدها لأموالها.. ولا من عملي الجديد الذي أقوم به مع الدكتور "سترونج".

جاءت دورا إلى حجرة الاستقبال، وكلبها جيب يجري ويقفز بجانبها.. وسألتها:

- هل تعتقدين أن بإمكانك أن تكوني على علاقة حب مع شحاذ..؟!
- ولماذا تسأل مثل هذا السؤال الغبي..؟!
- "دورا".. لقد أصبحت شحاذا.. لقد أفلست.!
- إذا واصلت الحديث هكذا فسوف أطلب من "جيب" أن يعضك!

ولكن لأن منظري كان جاداً، فقد تنبهت "دورا"..ووضعت يدها على كتفي، وبدأت في البكاء.. وعندئذ ركعت على ركبتي وطلبت منها أن تشفق بي ولا تحطم قلبي.. **وقلت لها مستفسراً عن مصير حبي:**

- هل ما زلت تحبينني يا "دورا"..؟!

فقالت بسرعة:

- نعم .. نعم.. ولكن أرجوك لا ترهبني بمثل هذه الأخبار عن فقرك وعن عملك الشاق!

وسألتها:

- هل في استطاعتي أن أقول شيئاً..؟!

فأجابت فورا:

- لا أرجوك .. لا تقل شيئاً عن... ...
- إذن .. ما دمت تقبلين الزواج برجل فقير مثلي، فسوف يكون من الأفضل أن تنظري إلى الحياة بجدية.. وأن تتعلمي شيئاً يمكنك من فحص دفاتر حسابات والدك.. إن ذلك سيفيدك مستقبلاً..!

فشرعت في البكاء مرة أخرى.. ثم استدعت صديقتها "جوليا ميلز"..

وعندما حضرت صديقتها طلبت منها أن تعاون "دورا" في قراءة وفهم أي كتاب في طهي الطعام أو أي دفتر للحسابات..

ووعدتني صديقتها بأنها ستحاول ذلك.. ولكنها لم تفعل كثيراً لتحقيق هذا الطلب..

34 ـ مستر سبنلو يعرف العلاقة:

وذات يوم بينما كنت متوجهاً إلى مكتب مستر "سبنلو"، وجدته جالساً يتألم من شدة الحزن، لدرجة أنه لم يرد على تحية الصباح التي ألقيتها إليه..

ونظر إلي ببرود، وسألني أن أصحبه إلى حانة مجاورة، وصعدنا معاً الى الطابق العلوي بتلك الحانة وأدخلني إلى حجرة، ورأيت مس "ماردستون" جالسة وكأنها كانت تتوقع حضورنا..

- لو سمحت .. أرجو أن تعرضي على مستر "كوبرفيلد" ما تحتفظين به في حقيبتك!

وأخرجت مس "ماردستون" أخر رسالة كنت قد أرسلتها إلى "دورا".. وقال مستر "سبنلو":

- أعتقد يا مستر "كوبرفيلد" أن هذه الرسالة مكتوبة بخطك؟

قلت: نعم..!

وعندما قدمت إليه مس "ماردستون" بعض الرسائل الأخرى قال:

- وأعتقد أن هذه الرسائل الأخرى مكتوبة بخطك.

قلت: نعم...

فأشار إلى مس "ماردستون" **وقال لها:**

- استمري يا مس "ماردستون" في حكايتك..

فقالت:

- لقد بدأت أشك في وجود علاقة بين مستر "كوبرفيلد" ومس "دورا سبنلو".. فبدأت أراقبهما في حذر وعناية.. وبعد أن تناولنا الشاي بعد عصر يوم أمس.. لاحظت أن الكلب "جيب" يلعب بورقة، فأخذتها منه

وقرأتها فتبين لي أنها رسالة.. وذهبت إلى مس "دورا سبنلو" وطلبت منها أن تعطيني كل الرسائل السابقة.. وهكذا حصلت على تلك الرسائل التي أريتكما أياها!

فالتفت إلى مستر "سبنلو" وقال:

- هل لديك شيء تقوله تفسيراً لذلك..؟

فأجبت:

- ليس لدي ما أقول.. سوى أن اللوم يقع على أنا وحدي!
- سألقي بكل هذه الرسائل إلى نار المدفأة.. وعليك أن تعطيني جميع الرسائل التي أرسلتها لك ابنتي لألقيها في النار..

ولم أوافق بالطبع.. واستمر مستر "سبنلو" في غضبه:

- ربما تعرف أني رجل غني.. وأن ابنتي هي أقرب أقربائي.. وأنا لا أريد أن أغير في ترتيبات ثروتي.. وسأعطيك مهلة لمدة أسبوع واحد تفكر فيما قلته لك!

وقبل أن أعود إلى المكتب، فكرت في أن أتوجه بسرعة إلى بيت "دورا".. وكتبت رسالة قصيرة إلى مستر "سبنلو" أن يترفق بابنته وأن يعاملها بلطف.. وتركت الرسالة على المائدة.

وذهبت إلى مس "جوليا ميلز"، فوجدت أن لديها فيضاً من الكلمات المدهشة كانت تريد أن تصبه في مسامعي، فتركتها وأن أكثر تعاسة مما كنت عليه من قبل.

وحكيت لعمتي كل ما حدث.. ولكنها لم تعطني أي أمل.. فنمت على سريري يائساً يتمزق قلبي من شدة الحزن..

وفي صباح يوم السبت ذهبت إلى المكتب.. فرأيت جمعاً من الناس يقفون حول الباب.. وعندما دخلت رأيت الكاتب العجوز "تيفى" جالساً على مقعد غير مقعده، وقد أمسك بقبعته في يده، **وقال عندما رآني:**

- حدث شيء فظيع يا مستر "كوبرفيلد"!
- ماذا.. ماذا حدث؟!
- مستر "سبنلو".
- ماله..؟!
- مات.. لقد سقط من عربته.

35ـ يورياه يقول أكثر من اللازم:

ذهب إلى **كانتربري** لزيارة مستر "ويكفيلد" في مكتبه وبيته.. وفي الحجرة الصغيرة الملحقة بالمكتب والتي كان يشغلها "يورياه هيب" من قبل، رأيت مستر "ميكاوبر" جالساً.

سألته:

- هاه.. هل أحببت العمل بالقانون يا مستر "ميكاوبر"..؟

أجاب:

- أنا رجل له قدرة كبيرة على التخيل.. ووجدت أن القانون يتطلب قدراً كبير من الحقائق..
- وهل يعطيك الآن أجر طيباً..؟
- لقد سدد كل ديوني.. كلها..
- لم أكن أتوقع أنه أصبح حراً في التصرف في النقود إلى مثل هذه الدرجة.. هل ترى مستر "ويكفيلد" كثيراً..؟
- لا ليس كثيراً.. أنه رجل ذو سمعة كبيرة.. ولكنه لم يعد ذا فائدة!
- أعتقد أن شريكه هو الذي يحاول أن يجعله بلا فائدة..!
- يا عزيزي "كوبرفيلد".. إني هنا مجرد موظف موثوق فيه إلى حد كبير... وهناك بعض الأمور لا أستطيع أن أتحدث فيها بحرية.

لقد تغير مستر "ميكاوبر".. أصبح هناك حاجز يفصل بيني وبينه.. ولم تعد صديقين مثلما كنا في الماضي..

كانت "أجنس" جالسة في حجرتها، **فصحت بها:**

- "أجنس" يا عزيزتي.. أني أشعر بالاحتياج إليك في الفترة الأخيرة.. كنت أفكر فيكي لأني في حاجة إلى نصيحتك وتشجيعك.. عندما تكونين معي.. أشعر بأن أحوالي تتحسن إلى الأفضل.. فما هو السر في ذلك يا "أجنس".. إن ثقتي كلها فيك أنت وحدك!

فقالت برقة:

- ولكن لا يجب أن تضع هذه الثقة في أنا.. يجب أن تضع ثقتك في "دورا"..

وفي المساء جلسنا لنتناول طعام العشاء.. وشرب مستر "ويكفيلد" نخب عمتي.. ونخب مستر "ديك".. **ثم وقف "يورياه" وقال:**

- إني أشرب نخب أجمل فتاة على ظهر الأرض!

كان مستر "ويكفيلد" يمسك في يده كأساً فارغة، ورفع عينيه إلى صورة زوجته السابقة أم "أجنس"، ثم وضع يده على رأسه.. **وواصل "يورياه" كلامه:**

- إني أحقر من أن أطلب شرب نخبها..ولكني معجب بها.. وأحبها!

وأخذ مستر "ويكفيلد" يعصر يديه في بعضهما معبراً عن شدة الألم الذي يعتريه.. وواصل "يورياه" كلامه:

- أن تكون أبا لـ"آجنس" يا "ويكفيلد"، فإن ذلك شيء يدعو للفخر.. أما أن تكون زوجها... ؟ ...

وهنا أطلق مستر "ويكفيلد" صرخة ألم وتوجع لم أسمع مثلها في حياتي كلها.. **فصاح به "يورياه":**

- ماذا في الأمر... هل جننت؟!

ووضعت ذراعي حول مستر "ويكفيلد" محاولاً تهدئته.. ويبدو أن الرجل قد عاني من لحظة جنون عابرة.. ولكنه أخذ يستعيد هدوءه رويدا رويدا.. ثم **قال فجأة وهو يشير إلى "يورياه":**

- انظر إليه! بسبب هذا الرجل فقدت اسمي خطوة خطوة.. وفقدت هدوئي وسلامي.. وفقدت مكتبي وبيتي..

فصاح به "يورياه":

- لا تكن غبياً هكذا يا مستر "ويكفيلد".. لم يحدث شيء فيه أي ضرر..

وواصل مستر "ويكفيلد" كلامه:

- ظننت أني أستطيع أن أثق به لأن مصلحته كانت تقتضي منه أن يكون صادقاً معي ومخلصاً لي.. ولكن انظر كيف أصبح!

فقال "يورياه" مهدداً:

- "كوبرفيلد".. من الأفضل أن تسكنه..وأن تمنعه من أن يقول أشياء سيندم عليها فيما بعد أشد الندم!

فصرخ مستر "ويكفيلد":

- سأقول أي شيء يعجبني.. لماذا لم يعد في مقدوري أن أقول ما أريد..؟!

ووجه "يورياه" حديثه إلي قائلاً:

- "كوبرفيلد".. إني أحذرك.. إذا لم تمنعه من الاستمرار في الكلام فلن تكون في مثل هذه الحالة صديقه الذي يحرص على مصالحه.. أنا وأنت تعرف ما نعرف.. أليس كذلك؟.. ألا ترى أني ما زالت متواضعاً.. وإذا كنت قد قلت شيئاً أكثر من اللازم، فأنا أسف لذلك.

وقال مستر "ويكفيلد" في صوت باك:

- أوه.. "تروتوود".. "تروتوود".. تذكر كيف انحدر حالي منذ أن رأيتني أول مرة في بيتي هذا.. لقد هدني الضعف.. وأصبحت لا أستطيع التذكر.. وتحول حزني إلى مرض.. لقد أحببت ابنتي لأني كنت أتذكر فيها وجه أمها.. وأصبحت الآن ضعيفاً حتى في حزني وحبي.. بل ضعيفاً حتى في طريقة هروبي من الجوانب المظلمة في هذا الحزن وهذا الحب.. انظر كيف تهدمت وأصبحت حطاماً..!

وألقى بنفسه على كرسيه وانفجر باكياً..

كان الظلام قد انسدل حين أوقفت عربة أمام الباب وهممت بركوبها، ولكن "يورياه هيب" جاء مسرعاً ووقف بجانب العربة **وقال بصوت منخفض يبدو مثل صوت الضفدعة:**

- "كوبرفيلد".. أعتقد أنه سيسرك أن تسمع أننا قد سوينا أمورنا.. لقد ذهبت إليه في غرفته ولم تعد بينني وبينه الآن آية مشاكل.. وربما أنت نفسك قد تعرضت في مرة لما تعرضت أنا له.. أعني أن تقطف من الشجرة تفاحة لم تنضج بعد.. ولكن الوقت سيأتي حتماً.. وأنا أستطيع أن انتظرّ..

26 ـ دورا.. وكتاب الطهي:

وكنت أتردد كثيراً على "دورا".. ولكن كان هناك شيء يقلقني باستمرار.. وهو أن "دورا" تحب أن يعاملها الجميع كما لو كانت لعبة جميلة.. كانت عمتي مثلا تسميها "الزهرة الصغيرة".. وكانت عمتها مس "لافينيا" تدللها أكثر وأكثر.. وصممت على مناقشة هذا الموضوع مع "دورا".. **فقلت لها:**

- أعتقد أن من الأفضل أن تطلبي منهم أن يغيروا طريقة معاملتهم هذه.. لأنك تدركين يا عزيزتي أنك لست طفلة صغيرة تحتاج لكل هذا القدر من التدليل والدلع..

فقالت:

- انظر.. ها أنت ذا تريد أن تغضبني وتغضب مني .. أنهم يعاملونني بمنتهى اللطف والعطف.. وأنا سعيدة بهذه المعاملة.

قلت محاولاً إقناعها:

- ولكن يمكنك أن تظلي سعيدة عندما يعاملونك بطريقة أكثر جدية وواقعية..

فقالت برقة شديدة:

- لا تقسو على هكذا.. يا عزيزي!

وطلبت مني أن أحضر لها كتاباً يعلمها فن طهي الطعام.. فسررت كثيراً بهذا الطلب.. وأحضرت لها الكتاب المطلوب.. وكتاباً آخر لتعليم الحساب.

ولكن كتاب الطهي سبب لها صداعاً.. أما كتاب الحساب فقد جعلها تبكي.. وصممت على أن أقوم بتعليمها بنفسي..

قلت لها:

- والآن افترضي يا عزيزتي أننا قد تزوجنا وإنك ذهبت إلى الجزار لتشتري لي قطعة من اللحم، فهل تعرفين كيف تشترينها..؟

فقالت:

- ولماذا أعرف كيف اشتريها ما دام الجزار يعرف كيف يبيعها..؟!
- إذن .. لنفرض مثلاً إني طلبت منك أن تطهي لنا طبق من اليخني الأيرلندي[1].. فماذا تفعلين..؟!

فقالت على الفور:

- أنادي على الخادمة، وأطلب منها أن تعد لنا هذا الطبق..

وهكذا لم يعد كتاب الطهي ذا نفع.. ووضعته في أحد الأركان الجانبية بالحجرة، ليقف أو ليجلس عليه كلبها المدلل..

[1] طبخة أيرلندية شهيرة وسهلة، تتكون من بعض قطع اللحم الصغيرة سلق ببطء مع بعض الخضروات

37 ـ الزوجة الطفلة:

تزوجنا

وعاشت معنا في البيت خادمة تسمى "ماري أن"..

وقلت لـ"دورا" ذات يوم:

- عزيزتي.. يبدو أن "ماري آن" ليس لديها أية فكرة عن الوقت.. فالطعام يجب أن يقدم في الساعة الرابعة.. ونحن الآن في الساعة الخامسة.

فقالت ببساطة:

- ربما تكون الساعة هي المخطئة في تحديد الوقت.. وأنا لا أجسر على الكلام معها في مثل ذلك.. إني أخاف منها..

فقلت بعد أن فاض بي وأنا أحاول في نفس الوقت أن أمسك بأعصابي:

- بالأمس اضطررت إلى الخروج قبل أن يتم طهي الطعام.. وأول أمس لم يكن اللحم مطبوخاً بطريقة سليمة.. أما اليوم فليس هناك طعام على الإطلاق.. إني لا ألومك في ذلك.. ولكن الحياة بمثل هذا الطريقة غير مريحة!

فقالت بطريقة هي خليط من الغضب والدلع:

- أنت ولد قاس.. هل تريد أن تقول أني زوجة سيئة؟!

أما المشكلة الحقيقية الكبرى فكانت تتمثل في الخادمات اللاتي أصبحنا نستخدمهن في البيت واحدة وراء أخرى.. فبعد أن تركنا "ماري أن" لاحظت أن بعض الملاعق وبعض النقود قد اختفت، ثم استخدمنا بعدها مسز "كيدجربري" التي كانت عجوزاً لا تقوى على أداء أي عمل.. ثم خادمة أخرى كانت تحطم كل شيء.. ثم عددا من الخادمات اللاتي لا يعرفن شيئاً عن

واجباتهن.. وأخيراً استخدمنا فتاة شابة أخذت قبعة "دورا" وارتدتها حين ذهبت لمقابلة صديقها!

لقد أصبح الجميع يخدعوننا بسهولة.. حتى أصحاب المتاجر أصبحوا لا يعطوننا إلا أسوأ بضائعهم، فجميع ما اشتريناه من أسماك كانت فاسدة.. وإذا اشترينا لحماً فإنه لا يؤكل بعد طهيه.. حتى الخبز الذي كنا نشتريه أما أن يكون فاسداً أو مبلولاً.. وحتى النساء اللاتي كنا نحضرهن لغسل ملابسنا كن يبعن هذه الملابس بعد غسلها.. وكانت الخادمات تشترين بعض حاجياتهن ويطلبن منا أن ندفع ثمنها..وجاء ضيف صديق ليزورنا فقدمنا إليه طعاماً لا يؤكل!

وبعد انصراف الضيف.. جاءت "دورا" وجلست بجانبي **وقالت**:

- إني آسفة يا عزيزي لما حدث.. كان من الأفضل قبل أن أتزوج بك، أن أعيش مع "أجنس" لمدة عام كامل حتى أتعلم منها كل شيء.. هل تحب أن تطلق على اسماً أفضل أن تدعوني به..؟!

سألتها"

- ما هو..؟
- أدعوني.. الزوجة الطفلة.. فكلما نويت أن تغضب مني.. **فقل في نفسك:** أنها مجرد زوجة طفلة!

38 – محاولة التأثير على عقل دورا:

مر الآن نحو عام ونصف عام على زواجنا.وبعد عديد من المحاولات توقفنا تماماً عن إدارة المنزل.. لقد أصبح المنزل يدير نفسه بنفسه.. وأصبح لدينا الآن خادم وطباخة.. ويبدو أن هذا الخادم لم يكن لديه شيء يشغله سوى المشاجرة مع الطباخة طول الوقت.

وسرق الخادم ساعة "دورا" الذهبية وباعها.. فقبض عليه ووضع في السجن.. وأمام القاضي اعترف بالأشياء الأخرى التي سرقها منا.. كما اعترف أيضاً بالأشياء التي سرقتها الطباخة.. وشعرت بالخجل من نفسي بعد اكتشافي أي سرقت من جانب هؤلاء الذين كنت أدفع لهم أجرهم كاملاً..

وشجعتني جميع هذه الحوادث على أن أفاتح "دورا" في هذا الموضوع بطريقة جادة وحازمة، فقلت لها في إحدى الأمسيات:

- يا حبي.. يبدو أن النقص في قدرتنا على إدارة المنزل لا يتسبب في إلحاق الضرر بنا وحدنا.. بل إنه يلحق الضرر بالآخرين أيضاً.. يبدو أننا أصبحنا نشجع الناس على أن يصبحوا لصوصاً.. لقد أصبحت أشعر بأن هؤلاء الناس يفعلون مثل هذه الأشياء السيئة لأننا لسنا حازمين معهم بشكل كاف.. ..

فصاحت "دورا" قائلة:

- أوه.. أوه.. ما هذا الذي تقول.. هل رأيتني في مرة وأنا أسرق ساعات ذهبية..؟!

وانخرطت في البكاء، **فقلت لها:**

- "دورا" يا حبي.. أرجوك أن تنصتي لما أقول.. يجب علينا أن نتعلم كيفية التعامل مع هؤلاء الناس الذين نستخدمهم.. إني أخشى أن أقول أننا نحن

الذين نعطيهم الفرصة ليفعلوا مثل هذه الأشياء السيئة.. إني قلق من أجل ذلك..

فواصلت بكاءها وهي تقول في نفس الوقت:

- إذا كنت لا تشعر بالسعادة فلماذا تزوجتني إذن.. لماذا لا ترسلني لأعيش مع عمتي في "بوتني".. أو أعيش مع صديقتي "جوليا ميلز" في الهند..؟! وأصبح الكلام معها بلا فائدة..

ومع ذلك فلم أفقد الأمل.. وصممت على أن أقوم بنفسي بتطويع عقل "دورا" ليصبح أكثر جدية.. وبدأت هذه المحاولة على الفور..

قرأت لها بعض أعمال **"شكسبير"**.. وقرأت لها بعض نصوص المعرفة المفيدة.. وبكنها بدأت تخمن في أني أنما أفعل ذلك بقصد التأثير على عقلها، فبدأت تخشى مثل هذه الموضوعات.. وازدادت كراهيتها لـ**"شكسبير"!**

وقضيت في مثل هذه المحاولات عدة شهور.. ولكن يبدو أن تطويع عقل "دورا" لم يحقق أي قدر من النجاح.. ومع ذلك فقد تخيلت إني قد حققت بعض النجاح في ذلك، فاشتريت لها حلية ثمينة على شكل حلق لأذنيها **وقلت لها وأنا أقدم هديتي:**

- إني أخشى أننا لم نكن متجاوبين مع بعضنا طوال الأشهر الماضية.. وأخشى أننا لم نقضي سوياً أوقاتا طيبة.. والحقيقة يا "دورا".. إني كنت أحاول أن أكون حكيماً..

فقالت:

- وكنت تحاول في الوقت نفسه أن تجعلني حكيمة أليس كذلك؟

فأومأت برأسي، **وقالت ببساطة:**

- لا فائدة في ذلك.. وعليك أن تطلق على الاسم الذي أحبه: الزوجة الطفلة!

وهكذا أصبحت على يقين من أننا غير متوائمين عقلاً أو أهدافاً.. وبدلا من محاولاتي في أن أجعل "دورا" تناسبني.. بدأت محاولاتي في أن أجعل نفسي مناسباً لـ"دورا".. ولهذا فقد بدأت أشعر ببعض السعادة.

وما أن انقضى العام الثاني على زواجنا، بدأت ألاحظ أن "دورا" أصبحت معتلة من الناحية الصحية.. وكنت آمل في أن نرزق بطفل ربما سيجعلها تنظر إلى الحياة نظرة أكثر جدية.

ولكن هذا الأمل لم يتحقق وازدادت صحتها سوءا.. وكنت قد اعتدت في الأيام الأخيرة أن أحمل "دورا" على ذراعي وأنزل بها إلى الطابق السفلي كل صباح.. ثم أحملها مرة أخرى واصعد بها إلى الطابق العلوي كل مساء.. ولاحظت أنها كانت تزداد خفة في الوزن يوماً بعد يوم.

وكانت عمتي تقول لها كل ليلة:

- تصبحي على خير.. أيتها الزهرة الصغيرة!

ولكن مرض الزهرة الصغيرة أخذ يشتد أسبوعاً وراء أسبوع.. حتى كلبها جيب أصبح يبدو كلب عجوز محطم..

رقدت "دورا" على السرير.. جميلة كما كانت تبدو دائماً.. وعلت وجهها ابتسامة رائعة طيبة.. ولم تصدر منها أية شكوى.. ولم تطلب منا أي طلب.. وقالت لنا إنها مرتاحة لأننا كنا جميعاً طيبين معها..

جلست بجوار سريرها في الضوء الخافت.. وكان وجه زوجتي الطفلة متجها نحوي.. وكانت أصابعها ترقد ساكنة في يدي..وماتت!!

الجزء السادس
التســـــوية

39 ـ مستر ميكاوبر يعترف

استلمت رسالة غريبة من مستر "ميكاوبر" **يقول فيها:**

"انتهى سلامي.. وتحطمت قدرتي على المتعة والسرور.. وذبلت الزهرة!"

قرأت الرسالة عدة مرات محاولاً فهمها، ولكني لم أفهم منها شيئاً، برغم يقيني أنها أكثر أهمية من جميع الرسائل التي أرسلها لي مستر "ميكاوبر" من قبل.

وبعد عدة دقائق استلمت رسالة أخرى من مسز "ميكاوبر" **تقول فيها:**

"لم يعد مستر "ميكاوبر" كما كان من قبل .. إنه يقول أنه قد باع نفسه للشيطان.. ويقول أنه يريد الانفصال عني.. أعتقد أن هناك سراً وراء هذا السلوك الغريب.. أرجوك أن تلقاه وتتحدث معه!"

وعلى الفور أرسلت رسالة إلى مسز "ميكاوبر" لأطمئنها، كما رتبت موعداً للقاء مستر "ميكاوبر" في بيت عمتي..

وعندما وصل لاحظت أنه في حالة معنوية سيئة، فقلت له مواسياً:

- أرجو ألا تكون قد بدأت تكره الأعمال القانونية.

فلم يجب بشيء وظل صامتاً، **فسألته:**

- كيف حال صديقنا "يورياه هيب"..؟

فأجاب:

- إن كنت نسأل عنه باعتباره صديقاً لك فأنا أسف لذلك.. أما إذا كنت تسأل عنه باعتبار صديقي فهذا شيء مضحك.. إني لا أريد أن أتحدث عن هذا الرجل، إن موتي وحده هو الخلاص من كل شيء!

فقالت عمتي:

- أرجو أن تكون زوجتك وأبناؤك في حالة طيبة..

- أنهم جميعاً بخير يا سيدتي.. ولكني أنا وحدي – لست بخير .. وأشعر باليأس..

فقلت أطمئنه وأحثه على الإفاضة بما صدره:

- تكلم يا مستر "ميكاوبر".. إنك الآن مع أصدقاء صادقين.. ماذا في الامر..؟!

وانفجر مستر "ميكاوبر" في الكلام:

- ماذا في الأمر؟.. إن الشيطان هو الأمر.. إن الأعمال السيئة الدنيئة هي الأمر.. إن السرقة والغش والخديعة هي الأمر.. إن السبب المباشر في كل هذه الأشياء المنحطة هو "يورياه هيب".. الآن قد انتهى الصراع من أجل الحياة.. ولن أعيش مثل هذه الحياة مرة أخرى أريد أن استعيد حياتي الطيبة مع زوجتي ومع أسرتي.. وقد آليت على نفسي أن أحطم هذا المخلوق المدعو "هيب" إلى قطع صغيرة.. سأدمره تدميراً.. وموعدنا في مثل هذا الوقت من الأسبوع القادم في الفندق الصغير **بكانتربري**.. أخبر الجميع بذلك.. سنلتقي هناك كلنا.. سأنصرف الآن.. وإلى اللقاء..!!

وخرج من البيت وهو يجري.. إني لم أر في حياتي اضطراباً مثل الاضطراب الذي كان يعانيه هذا الرجل عندما كان يلقي على مسامعنا هذا الكلام الغريب..

وبعد دقائق قليلة وصلتني منه رسالة يبدو أنه كتبها في الحانة المجاورة، **يقول فيها:**

"سيدي..

أني اعتذر عما بدر مني من اضطراب شديد.. ولعلي أكون قد أوضحت تماماً إن موعدنا في الأسبوع القادم في "حانة السفير" في **كانتربري**..

40 ـ ويلكنز ميكاوبر

انقضى أسبوع وحل موعد اللقاء.. فذهبت أنا وعمتي ومستر "ديك" إلى "حانة السفينة" في **كانتربري**.. واستلمنا رسالة كانت في انتظارنا يقول فيها مستر "ميكاوبر":

"انتظروني في الساعة التاسعة والنصف من صباح الغد في مكتب "ويكفيلد وهيب"..

وذهبنا إلى المكتب في الموعد المحدد.. ووجدنا مستر "ميكاوبر" جالساً على مكتبه ويكتب.. أو ربما يتظاهر بأنه يكتب شيئاً.. **فقلت له:**

- كيف حالك يا مستر "ميكاوبر"..؟

فقال بصوت حزين:

- مستر "كوبرفيلد".. إن مستر "ويكفيلد" يرقد مريضاً على السرير.. ولكن مس "آجنس ويكفيلد" مسرورة لرؤية أصدقائها القدامى..

وفتح باباً يؤدي إلى غرفة الاستقبال، **وقال بطريقة جادة:**

- مس "تروتوود".. مستر "دافيد كوبرفيلد".. مستر "ديك"..

ولاحظت على الفور أن زياراتنا المفاجئة هذه قد أدهشت "يورياه هيب" كثيراً.. ولكنه سرعان ما استعاد قدرته على التظاهر بالتواضع كالمعتاد.. **وقال بطريقته المعروفة:**

- هذا سرور لم أكن أتوقعه إطلاقاً.. لقد تغيرت الأحوال في هذا المكتب يا مس "تروتوود" منذ زيارتك السابقة.. حين كنت مجرد كاتب متواضع..

وجاءت "آجنس".. وكانت تبدو قلقة ومتعبة.. وظل "يورياه هيب" يتابعها بعينيه وهي ترحب بنا..ثم نظر إلى مستر "ميكاوبر" **وقال له:**

- لماذا تنتظر هنا.. هيا اخرج إلى مكتبك.. ألا تسمعني.. قلت لك أخرج من هنا..

فقال مستر "ميكاوبر":

- حاضر!

ولكنه لم يتحرك من مكانه.. **فقال "يورياه" بحدة:**

- قلت لك اخرج.. ماذا تريد هنا؟

فقال مستر "ميكاوبر" بكل ثبات:

- أريد أن أخبرهم بأنه إذا كان هناك وغد واحد في هذا العالم.. فإن اسم هذا الوغد هو "يورياه هيب"!!

وغاص "يورياه" في مقعده كما لو كان قد تلقى ضربة قوية على رأسه.. وشحب لون وجهه، ولكنه تماسك **وقال:**

- هي مؤامرة إذن يا "كوبرفيلد".. لقد رتبت أمر هذا اللقاء بعد أن ألبت على موظف صغير عندي.. ولكني أحذرك يا "كوبرفيلد".. إن هذا اللقاء سيكون بلا طائل.. إننا نفهم بعضنا جيداً..ونكره بعضنا تماماً.. والآن.. انصرف يا "ميكاوبر".. وسنتحدث في ذلك فيما بعد..!

وفي هذه اللحظة وصل صديقي "ترادلز" وكان يصطحب معه مسز "هيب"، **فسأله "يورياه":**

- من أنت..؟

فأجابت "تراداز":

- أنا صديق لمستر "ويكفيلد".. وعندي السلطة لكي أتحدث باسمه!

وهنا تدخلت مسز "هيب" **قائلة:**

- "يورياه"!

فأجاب "يورياه" نداء أمه بصوت يخلو من الأدب:

- اسكتي!

وفي الحال وقف مستر "ميكاوبر".. وأمسك في يده ورقة كبيرة الحجم، وبدأ يقرأ ما فيها:

"جميع أعمال مكتب (ويكفيلد وهيب) يقوم بها "هيب".. و"هيب" إذ مجرد لص..".

اندفع "يورياه هيب" نحوه مسرعاً، وحاول أن يخطف منه الورقة التي كان يقرأها.. ولكن مستر "ميكاوبر" ضربه على يده.. فسقطت يده إلى جانبه كما لو كانت مكسورة.. **وصاح به "هيب"**:

- فليأخذك الشيطان!

فرد عليه مستر "ميكاوبر" **قائلاً**:

- إذا اقتربت مني مرة أخرى فسوف أكسر عنقك!

وعاود مستر "ميكاوبر" القراءة:

"كان يدفع لي أجراً ثابتاً عبارة عن اثنين وعشرين شلنا كل أسبوع.. أما بقية الأجر فكان يحدده حسب ما أقوم به من عمل.. أو بمعنى آخر حسب ما أقوم به من أعمال سيئة خاطئة كان يحتاجها ويأمرني بأدائها لخدمة أغراضه في الغش والخداع.. وكان يقرضني النقود حتى أصبحت واقعاً تماما تحت سيطرته. وقد وجدت أن جميع الخدمات التي يطلبها "هيب" مني هي الاستمرار في خداع مستر "ويكفيلد" بكل طريقة".

وتوقف مستر "ميكاوبر" عن القراءة لحظة قصيرة ليرى أثر ما قاله على السامعين.. **ثم استمر بعد ذلك في القراءة:**

.. كان يغش مستر "ويكفيلد" بكل الطرق الممكنة في نفس الوقت الذي كان يدعي فيه أن مستر "ويكفيلد" هو صاحب الفضل الأول عليه ويتظاهر بأنه أعز صديق له.. وأخيراً تغير قلبي واستيقظ ضميري لأجل خاطر مس "ويكفيلد".. وبدأت أراقب ما يفعله "هيب" بطريقة سرية.. وعرفت أن "هيب" كان يحصل على توقيع مستر "ويكفيلد" على بعض أوراق والمستندات المهمة، مدعيا أنها أوراق عديمة الأهمية.. بل لقد جعل مستر "ويكفيلد" يسحب مبلغ ألف ومائتي جنيه من حسابات بعض العملاء المودعة عنده بعد أن أدعى أنها مصاريف أنفقت في بعض الأغراض... وجعل الأمر يبدو كما لو كان مستر ويكفيلد قد سحب هذا المبلغ لنفسه.. وبهذه الطريقة الشيطانية سيطر تماماً على مستر "ويكفيلد" وجعله طبعاً يقبل كل شيء يراه..."

وهب "يورياه هيب" **موجهاً حديثه إلى:**

- إنك لن تستطيع إثبات ذلك يا "كوبرفيلد"!

واستمر مستر ميكاوبر في القراءة:

"...كنت أعيش في نفس المسكن الذي كان يعيش فيه "هيب" وتركه.. وهناك عثرت على بقايا دفتر صغير كان قد أحرقه ولكن بقيت منه بعض أجزاء لم تصل إليها النار..".

وهنا صاحت مسز هيب مولولة:

- يورياه.. يورياه.. كن متواضعاً.. وحاول أن تصل إلى تسوية هذا الأمر معهم!

فصاح به "يورياه":

- أمي.. هل يمكنك أن تلزمي الصمت؟!

واستمر مستر ميكاوبر في القراءة:

.. وعرفت أيضاً أن "هيب" كان في أحيان كثيرة يقوم بتزوير وتغيير بعض البيانات المدونة في دفاتر الحسابات.. وعرفت كذلك أنه جعل مستر "ويكفيلد" يوقع على مستند يثبت زوراً أنه اقترض مبلغاً كبيرا من "هيب"، في حين أن مستر "ويكفيلد" لم يحصل على أي قرض منه.. هذا بالإضافة بأن لدى ورقة تثبت محاولات "هيب" في تقليد وتزوير التوقيع الخاص بمستر "ويكفيلد"".

قام "هيب"، وأخذ مفاتيحه.. وفتح دولاباً معيناً، نظر بداخله، ثم أغلقه، واتجه نحونا مرة أخرى وهو يشعر بذل وانكسار.. **فقالت أمه تستعطفه وتحاول إقناعه:**

- "يورياه".. كن متواضعاً وقم بتسوية الأمر معهم.. لقد أخبرني مستر "تزادلز" بأنه عرف جميع هذه الأشياء ولديه كل المستندات.. ووعدته بأنك ستكون متواضعاً وسترد إليهم أموالهم..

واستمر مستر "ميكاوبر" في القراءة:

.. واستطيع أن أثبت أن "هيب" قد أجبر مستر "ويكفيلد" حتى يصبح شريكاً له في المكتب.. ووعده بأن يدفع له مبلغاً معيناً كل عام.. ثم أخذ يقرض مستر "ويكفيلد" بعض النقود.. وهذه النقود هي نقود مستر "ويكفيلد" بكل تأكيد.. وبهذه الطريقة وضع مستر "ويكفيلد" تحت سيطرته..

وأنا أتعهد بأن أثبت صدق جميع هذه الحقائق.. وبعد هذا فإن علي أنا وأسرتي التعيسة أن نختفي من على وجه هذه الأرض التي فشلنا فيها. ولم نستطع أن نخدم أي هدف مفيد!"

وبعد أن انتهى مستر "ميكاوبر" من القراءة، طوى الورقة التي يقرأ منها وأعطاها لعمتي.

وكانت هناك خزينة حديدية ضخمة قابعة في ركن الغرفة، فقام "يورياه هيب" وفتحها وفوجئ بأنها خالية تماماً **فصاح:**

- أين دفاتر الحسابات.. لابد أن أحد اللصوص قد سرقها..

فقال مستر "ميكاوبر":

- لقد أخذتها أنا..!

وقال "ترادلز":

- وهي عندي أنا..!

وفجأة هبت عمتي واقفة، واتجهت نحو "يورياه"، وأمسكت بتلابيبه، **وصاحت في وجهه:**

- هل تعرف ماذا أريد؟ ... أريد نقودي... أريد أن تعيد إلي أموالي!

ثم التفتت عمتي نحو "آجنس" و**قالت:**

- "أجنس" يا عزيزتي.. عندما خدعت وقيل لي أني فقدت أموالي بسبب يرجع إلى مستر "ويكفيلد"، فإني لم أقل شيئاً ولا نطقت بكلمة.. ولكن الآن عرفنا أن هذا الشخص هو الذي استولى على أموالي.. وسوف استردها منه!

وارتمى "يورياه" على مقعده، وقال مستسلما:

- وماذا تريدون أن أفعل..؟!

فقال "ترادلز":

- ستوقع على مستند بالتنازل عن كل شي لي .. وإذا لم توقع على هذا المستند، فسوف يكون مصيرك إلى السجن.

وهنا قامت مسز "هيب" باستعطاف "أجنس" لكي تساعدها وأن تكون رحيمة بها، **فقال "يورياه":**

- أماه.. توقفي عن هذا الضجيج..!

ثم التفت إلى "ترادلز" وقال:

- أين هذا المستند؟.. سأوقع عليه..!!

***

اعترفنا جميعاً بفضل مستر "ميكاوبر" وصنيعه الجميل الرائع.. وكنا شغوفين بأن نوجه الشكر إليه.. ولذلك فقد ذهبنا معه إلى بيته.. وكان مدخل البيت الذي يطل على الشارع هو نفسه المدخل إلى غرفة الجلوس..

اندفع مستر "ميكاوبر" إلى داخل البيت، وارتمى بين ذراعي زوجته وهو يحتضنها بقوة ويصيح:

- أيها.. لقد زالت الغمامة.. وارتاح عقلي وضميري.. والآن مرحبا بالجوع.. ومرحبا بالثياب الرثة والهلاهيل.. إن ثقتنا في بعضنا ستستمر إلى النهاية!!

وقالت عمتي:

- مستر "ميكاوبر".. إني أتعجب لماذا لا تترك **انجلترا** وتذهب إلى أرض جديدة أخرى.. إلى **استراليا** مثلا؟!

فقال مستر "ميكاوبر":

- منذ مدة طويلة وأنا أحلم بذلك (وأنا على يقين من أن مستر "ميكاوبر" لم يفكر فيمثل هذا الموضوع من قبل).. ولكن هناك بعض الصعوبات..!

فقالت عمتي:

- النقود؟.. لقد أديت لنا خدمة عظيمة.. ومن واجبنا أن نتكفل بالنقود المطلوبة..!
- إني لا أستطيع أن أخذ هذه النقود كهبة.. ولكن يمكنكم أن تقرضوني إياها..!

- طبعا.. طبعا..

وهنا تساءلت مسز "ميكاوبر":

- في بلد مثل **استراليا**.. هل يستطيع رجل له مزايا وقدرات مستر "ميكاوبر" أن يجد فرصة للنهوض بمستواه ومستوانا.. إني لا أتوقع أن يصبح حاكما **لاستراليا** .. ولكني أتساءل هل يجد الفرص التي تناسب مواهبه..؟!

فقالت عمتي:

- ليس هناك مكان أفضل من **استراليا**.. في توفير فرص النجاح أمام مستر "ميكاوبر"..!

وخرجنا.. وخرج مستر "ميكاوبر" معنا.. وبينما كنا نجتاز ساحة السوق.. لاحظت أن مستر "ميكاوبر" قد تقمص شخصية مزارع استرالي.. وأخذ يتفحص قطعان الأغنام بعين خبيرة..!

41 ـ نهاية هيب:

ذهبنا أنا وعمتي و"آجنس" إلى **كانتربري** لنعرف نتائج التصفية التي قام بها "ترادلز" لأعمال مكتب "ويكفيلد وهيب". وكانت عمتي تبدو في حالة غير طيبة.. كانت شاحبة الوجه الذي ظهرت فيه خطوط حزن عميقة.. وكانت تبكي في بعض الأحيان، وتحاول أن تخفي دموعها بيدها..

وعندما اجتمعنا مع "ترادلز"، **قال بجدية**:

- لقد تحسنت أحوال مستر "ويكفيلد".. وأصبح الآن قادرا على المساعدة.. بل ساعدنا بالفعل في إيضاح الكثير من البيانات المدونة بالدفاتر.. وقد انتهينا الآن من وضع كل شيء في نصابه السليم..وخلصنا إلى كل النتائج.. فبالنسبة إلى موقف مستر "ويكفيلد" فهو غير مدين لأحد.. وتبقت له بضع مئات من الجنيهات يستطيع أن يواصل بها حياته.. أما بالنسبة لمس "تروتوود".. .. **فقاطعته عمتي:**
- لو كنت قد خسرت جميع أموالي، فإني أستطيع أن أتحمل ذلك.. وإذا حدث العكس فسوف أكون مسرورة باستردادها..
- لم نجد سوى خمسة... ...
- خمسة جنيهات.. أم خمسة آلاف..؟

فقال "ترادلز":

- خمسة آلاف جنيه..

فقالت عمتي فرحة:

- هي كل النقود إذن ..

ثم التفتت إلينا **وقالت**:

- عندما أبلغت بأني قد خسرت كل أموالي ظننت في البداية أن مستر "ويكفيلد" قد استخدمها وخسرها.. ثم خدعني "يورياه هيب" وأرسل إلى رسالة يقول فيها أن مستر "ويكفيلد" لص.. وأنه هو الذي استولى على أموالي.. فذهبت إليه وزرته ذات صباح.. وأحرقت رسالته أمامه.. وقلت له إذا كان بوسعه أن يضع الأمور في نصابها السليم فليفعل، وإلا فعليه أن يلزم الصمت!

وبعد لحظة، **تساءلت عمتي**:

- وماذا حصل بالنسبة لـ"هيب"..؟
- لا أعرف.. فقد اختفى..
- والآن ماذا سنفعل بالنسبة لمستر "ميكاوبر"..؟

فقال "ترادلز":

- في الحقيقة أن مستر ميكاوبر يستحق الكثير من الشكر والثناء.. لقد كان في وسعه أن يحصل من "يورياه هيبط على مبلغ كبير من المال مقابل سكوته.. وقد وجدت أنه مدين بمبلغ مائة وثلاثة جنيهات وخمسة شلنات..

فقالت عمتي موجهة حديثها إلى "آجنس":

- "آجنس" يا عزيزتي.. ماذا سنعطيه .. هل تعطيه خمسمائة جنيه..؟!

فقال "ترادلز":

- أعتقد أنه من الأفضل أن نشتري له تذاكر السفر إلى **استراليا** بالإضافة إلى مبلغ صغير لتغطية نفقاته..

واستدعينا مستر ومسز "ميكاوبر" إلى الحجرة.. وأخبرتهما عمتي بما قررناه..

وقلت لمستر "ميكاوبر":

- والآن أريد أن أنصحك.. لا تدع أحد يقرضك نقوداً مرة أخرى!

فقال مستر "ميكاوبر":

- أبداً.. لن أفعل ذلك.. وسوف أكتب هذا القسم على صفحة بيضاء في حياتي المستقبلية.. وسأجعل ابني "ويلكينز" يتذكر دائماً أن من الأفضل له أن يضع يده في النار، ولا يمدها إلى هذه المخلوقات.. هؤلاء الذين يقرضون النقود.. هؤلاء الذين سمموا دم أبيه التعيس..!

42 ـ العاصفة:

كنا في بداية المساء حين ركبت إحدى العربات أخذا طريقي إلى **يارموث**، وقلت لسائق العربة وأنا أتأمل السماء:

- ألا تعتقد أن الجو غريب جداً.. لا أتذكر أني شاهدت جو مثل هذا من قبل..

فقال سائق العربة:

- ولا أنا يا سيدي.. فهذا الجو ينذر بهبوب عاصفة شديدة.. وبالطبع سيثور البحر ويهيج وستحدث بعض الحوادث.

واشتد تلبد السماء بالغيوم والسحب.. بل وأخذت السحب المتطايرة تتراكم فوق بعضها كالجبال الشاهقة.. وكان القمر يبدو أحياناً من بين فرجات السحب وكأنه قد فقد طريقه وتاه وأصابه خوف عارم..

أما الرياح فقد أخذ هبوبها يشتد ويعنف لحظة بعد أخرى.. وكانت تحدث أصواتاً غريبة ومخيفة أحاطت بكل شيء..

وكلما أوغل الليل كلما تكاثفت أطباق الظلام.. وتراكمت جبال السحب وغطت السماء كلها واختفى وجه القمر..

وحينما اشتد هبوب الرياح أصبحت الخيل لا تقوى على جر العربة.. وكانت تدير رؤوسها لتتجنب صفعات الرياح.. بل وكانت تتوقف في أحيان كثيرة دون أن تقوى على مواصلة السير.. وأصبحنا نخشى أن تنقلب بنا العربة..

وبالرغم من بداية ظهور تباشير الصباح، إلا أن الرياح واصلت هبوبها العنيف وأصبحت أقوى من ذي قبل.. لقد رأيت عواصف كثيرة ولكني لم أشاهد عاصفة مثل هذه..

وصلنا متأخرين جدا إلى **أبسويش** بعد أن صارعنا الرياح طوال رحلة مرهقة.. ورأينا الناس قد تجمعوا في ساحة السوق بعد أن غادروا بيوتهم خوفاً من سقوط المداخن. وبينما كان سائق العربة يستبدل الخيل بخيل أخرى، سمعت الكثير من أخبار أسقف البيوت التي تطايرت وتحطمت، والأشجار الكبيرة والصغيرة التي أقتلعت وسقطت على الأرض..

وواصلنا الرحلة وسط هذه العاصفة العنيفة.. والتي كانت تزداد عنفاً وتدمير كلما مر الوقت واقتربنا من ساحل البحر الذي تهب منه كل هذه الرياح الثائرة، وبالرغم من أننا كنا لم نزل بعيدين عن الساحل بمسافة طويلة، إلا أننا أحسسنا بملح البحر فوق شفاهنا.. وانهمر مطر من الماء المالح فوق رؤوسنا..

وعندما لاح لنا ساحل البحر أخيراً.. سمعنا هدير الأمواج الصاخبة.. وهي تعلو فوق الشاطئ كما لو كانت أبراجاً أو بنايات مرتفعة.

ورتبت إقامتي بفندق صغير قديم.. ثم خرجت متجها صوب الشاطئ.. وهناك رأيت نصف سكان المدينة متجمعين.. وكثيراً من النساء كن يبكين بسبب عدم ظهور قوارب الصيد التي يعمل عليها أزواجهن بداخل البحر.. وكان قدامي البحارة يهزون رؤوسهم في يأس وهم ينظرون إلى كل من البحر والسماء.. وكان ملاك السفن والقوارب ينظرون صوب البحر وقد عصف بهم الاضطراب والقلق..

وكاد الحصى والرمال المتطايرة أن يعمى عيني.. وكاد هدير الموج أن يصم أذني.. وكاد البحر أن يخرج من شاطئه ليبتلع المدينة بمن فيها.. وفجأة أشار أحد الملاحين.. ورأيت.. ويالهول ما رأيت.. رأيت سفينة تتحطم والأمواج تهاجمها من كل جانب!

كان أحد صواري السفينة قد تحطم ولكنه مازال متعلق بجانب السفينة ويتخبط فيها بقوة.. ورأيت بعض الرجال على ظهر السفينة وهم يحاولون فصل الصاري عن السفينة وإلقاءه في البحر.. رأيت بينهم رجلاً مجعد الشعر..

وفجأة سمعت صرخة مدوية أطلقها كل المتجمعين على الشاطئ.. صرخة خطت على هدير الموج وزئير الرياح.. لقد طغى البحر على حطام السفينة.. وقذف بالصاري وبكل ما عليها من أشياء ومن عليها من الرجال.. في المياه الثائرة بكل عنف.. والتي كانت تبدو كما لو كانت تفور وتغلي..

وعندما أنزاح الموج عن الحطام، رأينا السفينة وقد انكسرت في منتصفها.. ورأينا أربعة من الرجال ما زالوا متعلقين بالصاري الثاني الذي ظل يتأرجح ويعلو ويهبط مع كل موجة.. ورأيت بين الرجال الأربعة الرجل المجعد الشعر.

وكان هناك جرس ما زال معلقاً بالجزء المتبقي من حطام السفينة.. وكان يدق بعنف واضطراب كلما هبت موجة تقرب الحطام من الشاطئ.. وكلما انزاحت موجة تبعد الحطام إلى داخل البحر.. كان دق الجرس أشبه بنذير الموت لهؤلاء الرجال التعساء الذين ما زالوا يكافحون ويحاولون التمسك بالحياة.

وهبت موجة عاتية وغطت الحطام كله.. ثم انزاحت بعد أن أخذت معها اثنين من الرجال الأربعة..فصرخ كل المتجمعين على الشاطئ وولولوا.. وأدارت النساء وجوههن وهن يصرخن ويبكين.. كما أخذ بعض الرجال يجرون ذهاباً وجيئة على الشاطئ وهم يصرخون لطلب المساعدة.. ولكن أية مساعدة تلك التي يمكن أن يقدمها أحد في مثل هذه الأحوال؟!

كان من المستحيل تماماً أن يرسل أي قارب للنجدة.. وكان من الجنون أن يسبح أحد ومعه حبل ليوصله بين الحطام والشاطئ.. ومع ذلك فقد رأيت بعض الرجال يستعدون لعمل شيء.. وكان "هام" في مقدمتهم.

رأيت في وجهه مزيجاً من ملامح الحزن وملامح التصميم والعزم.. وفهمت أنه مقبل على مواجهة أخطار قد يلقي فيها حتفه.. لذلك فقد اندفعت إليه وأحطته بذراعي لكي أمنعه من الإقدام على تلك المخاطرة.. وتوسلت إلى الرجال المجتمعين حولي وحوله أن يمنعوه من مغادرة الشاطئ..

ثم ارتفعت صرخة عالية، فنظرت صوب الحطام، فرأيت جزءاً من الشراع قد هوى وسقط في البحر أخذا معه واحداً من الرجلين الباقيين.. وهكذا لم يصبح على الحطام الآن سوى رجل واحد ما زال متشبساً ببقايا الصاري..

وهنا قال لي "هام" متوسلاً:

- مستر "دافيد".. لو كان عمري قد انتهى فهو قدري المكتوب.. ليباركك الله.. دعني أذهب!

وأحضروا له حبلاً طويلاً، ربط أوله حول خصره.

وكان الحطام يعلو فوق قمم جبال الموج، ويهبط بعنف إلى وديانها.. وكان الرجل الباقي عليه ما زال متشبثاً بالصاري.. وكان يرتدي كاباً أحمر غريب الشكل ظل يلوح به كما لو كان يتوسل إلينا لنجدته.. وقد ذكرني هذا الكاب الأحمر بصديق قديم كان يرتدي مثله..

نظر "هام" إلى البحر.. وعندما انحسرت موجة كبيرة عاتية، أخذ يجري وراءها.. وفي لحظة واحدة أصبح "هام" يصارع الأمواج.. يعلو فوق قممها ويهبط مع وديانها.. ثم قذفته موجة قوية نحو الشاطئ، فجذبه الرجال نحو الرمال..

كان من الواضح أنه أصيب.. ورأيت الدماء تغطي وجهه.. ولكنه لم يهتم بذلك بل وطلب من الرجال أن يرخوا الحبل ليتيحوا له مزيداً من الحرية للتوغل إلى داخل البحر حتى يصل إلى الحطام لينقذ الرجل.. ثم قذف نفسه بين أحضان الموج مرة أخرى..

أخذ يسبح نحو الحطام بكل قواه.. وكنا نراه يعلو ويهبط مع حركة الموج، وما كاد أن يصل إلى موقع الحطام ويمسك به، حتى رأينا موجة خضراء عالية كالجبل، جاءت من خلف الحطام وارتفعت فوقه.. وفي لمح البصر غاص الحطام في أعماق البحر.

تكاتف الرجال وأخذوا يسبحون الحبل.. وفي لحظات وصل "هام" مسحوباً إلى الشاطئ.. وكان جثة هامدة.. لقد لطمته الموجة الخضراء بضربة قاتلة أطاحت بحياته وبكل الشجاعة التي كانت تملأ قلبه. وحملناه إلى منزل قريب وبقيت إلى جواره، وعقلي مفعم بكل الذكريات التي عرفتها عن هذا الرجل الطيب الشجاع.

وبينما كنت جالساً بجوار سرير هذا الفقيد العزيز، سمعت طرقاً على الباب، ودخل أحد الصيادين يناديني باسمي:

- مستر "كوبرفيلد".. هل يمكن أن تحضر معي؟

وأحسست أن مصيبة أخرى قد وقعت واستندت إلى ذراع الرجل وسألته **بصوت ضعيف وحزين:**

- هل لفظ البحر جثة أخرى..؟
- نعم يا سيدي.
- وهل هي لشخص أعرفه..؟

ولم يجب الرجل بكلمة.. وقادني متأنياً نحو الشاطئ حتى وصلنا إلى نفس المكان الذي كنا – أنا و"اميلي" – نجمع فيه القواقع.. وهناك بين أطلال البيت القديم الذي أساء إلى أهله، رأيته ممدداً على الأرض، ورأسه مسنودة على ذراعه.. تماماً مثلما كان يفعل أيام المدرسة.. كانت الجثة لصديقي القديم.. "ستيرفورث"!!

وطافت بخاطري ذكرى أخر لقاء معه.. وتذكرت بوضوح أخر كلماته: "إذا فرقت بيننا الظروف .. فأرجو أن تذكر حسناتي!"

وهذا ما سوف أحافظ عليه إلى الأبد..!

43 ـ إبلاغ الخبر إلى مسز ستيرفورث

وصلت قرب الظهر إلى **هاي جيت**، وفتحت لي خادمة صغيرة باب البيت، **سألتها:**

- إني أحمل أخبار سيئة إلى مسز "ستيرفورث".. هل هي موجودة الآن..؟

في هذه اللحظة كانت الأم موجودة في غرفة ابنها.. وبجانبها كانت تقف "روزا دارتل"، **وتساءلت الأم في قلق:**

- هل هو مريض؟.. هل رأيته؟.
- هل عدتما أصدقاء كما كنتما من قبل..؟!

فهمست بصوت حزين:

- لقد مات!!

فصاحت الأم:

- "روزا" ألحقيني!

فلحقتها "روزا" على الفور.. ولكن بدون شفقة ولا رحمة.. وكانت عيناها تتوهجان بشرر كالنار، **وصرخت فيها قائلة:**

- والآن.. هل ارتحت.. هل أرضيت غرورك وفخرك بابنك.. أيتها المرأة المجنونة..؟!

ارتمت مسز "ستيرفورث" على مقعدها تحملق فيها بعينين مفتوحتين عن آخرهما.. وواصلت مس "دارتل" صراخها الملتاع، وهي تدق بيديها على صدرها وتشير إلى ندبة الجرح الظاهرة في وجهها.

انظري ماذا فعله ابنك في وجهي.. ثم نوحي بعد ذلك وولولي.. أيتها الام الفخورة بولدها الشرير.. أنت التي دفعته إلى طريق الشر والضياع.. كنت أحبه

أكثر منك.. أحبه دون مقابل ودون أمل أو رجاء.. وأحبني هو عندما كان بريئاً وصادقاً مع نفسه..وبعد ذلك أصبحت مجرد ألعوبة يلهو بها كلما وجد ساعة فراغ يريد أن يقضيها في اللذة والمتعة.. كان يسحبني إلى هنا أو إلى الطابق العلوي ويلهو بي وفق هواه.. لقد أصبحت بالنسبة لكما أنتما الاثنين مجرد شيء مكسورة لا فائدة وعديم القيمة!!

قلت استعطفها وأحاول أن أهدئ روعها:

- مس "دارتل".. أرجو أن تقدري شعور وأحزان أم فقدت ابنها الوحيد..!

فصرخت قائلة:

- ومن ذا الذي يقدر شعوري وأحزاني؟
- ولكني في مثل هذه اللحظة يجب أن تنسى كل الإساءات.. يجب أن تمدي يدك لمعاونة الأم الثكلى في تحمل أحزانها..!

ولكن مسز "ستيرفورث" كانت جالسة على مقعدها دون حركة.. كانت جامدة كتمثال نحت من الحجر.. وبدأت مس "روزا دارتل" تفك بعض الأزرار وتخفف أربطة ملابس الأم لتساعدها على التنفس.. **والتفتت إلي وصرخت في وجهي:**

- عليك اللعنة.. كانت ساعة شر سوداء حين جئتنا في هذا البيت.. عليك اللعنة.. هيا اخرج من هنا..!!

وأخذت مسز ستيرفورث بين ذراعيها.. تقبلها تارة، وتناديها باسمها تارة أخرى.. وتحاول بكل طريقة أن تفيقها من غشيتها.. أو تعيد إليها أنفاس الحياة..

44ـ وأقلعت السفينة

ذهبت أنا "وبيجوتي"- مربيتي العجوز المخلصة – إلى **جريفسند** لتوديع عائلة **ميكاوبر** المهاجرة إلى **استراليا**.. وكان مستر "بيجوتي" قد انتوى الهجرة أيضاً واستعد للرحيل على نفس السفينة.

وعندما وصلنا إلى الرصيف.. رأيت أبناء مستر "ميكاوبر" وهم يتعلقون بذراعي "أجنس" حتى أخر لحظة.. وأخذنا قارباً صغيراً اتجهنا به صوب السفينة التي كانت تقف بعيدة عن الرصيف..

واستقبلنا مستر "بيجوتي" الذي كان يقف على سطح السفينة بجوار السور.. وقال لنا أن مستر "ميكاوبر" قد قبض عليه منذ لحظة للوفاء بدين لأحد الدائنين.. ولكنه استطاع أن يدفع مبلغ الدين فأطلق سراحه.

وفي مكان منزو قريب على سطح السفينة لمحت "اميلي" جالسة مع أبناء مستر "ميكاوبر".. ورأيت "أجنس" تحييها وتودعها بقبلة.. كما رأيت مستر "جاميدج" وهي ترتب حاجيات مستر "بيجوتي" بمعاونة بعض الشابات الصغيرات.

ونودي على كل المودعين والزوار بأن يغادروا السفينة بعد أن حل وقت الرحيل.. وقمت بتوديع المهاجرين الوداع الأخير.. وكانت "بيجوتي" تبكي وهي متعلقة بذراعي..

ونزلنا إلى القارب الذي عاد بنا إلى الرصيف.. وكانت أشعة الشمس الغاربة تنعكس في جمال رائع فوق صفحة المياه الهادئة..

وساد الصمت لحظة.. ثم فردت السفينة قلوعها وأشرعتها في مواجهة الريح.. وبدأت تتحرك ببطء صوب البحر الواسع العريض.

45 ـ الفصل الأخير:

سافرت بعد ذلك في رحلة طويلة زرت فيها **إيطاليا وفرنسا وسويسرا**.. ثم عدت إلى الوطن..

توجهت فوراً إلى بيت عمتي في **دوفر** حيث استقبلتني هي ومستر "ديك" و"بيجوتي" التي أصبحت الآن مديرة للمنزل.. استقبلوني جميعاً بفرح عظيم والدموع تترقرق في عيونهم..

وظلت أتحدث مع عمتي حتى الليل.. **وفجأة سألتني عمتي**:

- ومتى ستسافر إلى **كانتربري**؟

فأجبتها:

- سأسافر صباح الغد..!

وجلست صامتاً مستغرقاً في التفكير العميق وأنا أحملق في نار المدفأة.. كنت أشعر بالأسف والحزن بسبب ما فشلت في معرفته والإحساس به والتنبه إليه في أيام صباي الماضية.

وخيل إلي أني أسمع صوت عمتي وهي تعتب علي قائلة:

- أوه يا تروت.. أنت أعمى .. أعمى.. أعمى..!

ثم قالت عمتي وكأنها تفهم مشاعري وتحس بما يدور في نفسي وقلبي:

- اذهب إليها .. ستجد أباها وقد خط المشيب شعر رأسه.. وستجدها جميلة متأنقة.. كريمة غير أنانية كما كانت دائماً..!

فسألت عمتي متردداً:

- هل لـ"آجنس".. ..
- لها ماذا ..؟

- عاشق يحبها..؟!

فصاحت عمتي:

- لها عشرون.. كان في إمكانها أن تتزوج عشرين مرة!!
- ولكن هل بينهم عاشق جدير بها ويستحقها.. وهل هي تحب أحدً بعينه.؟!

فقالت عمتي متنهدة:

- أعتقد أنها تحب واحد بعينه.. هي لم تخبرني بأي شيء عن حبها.. ولكني أعتقد ذلك..!

وفي الصباح الباكر وصلت إلى كانتربري.. وفتحت لي الباب خادمة جديدة لا تعرفني. قلت لها:

- أخبري مس "ويكفيلد" أن ضيفاً وصل ويريد أن يراها..

وبعد قليل فتح باب الحجرة ودخلت "آجنس" بكل جمالها ووداعة عينها واتجهت نحوي وهي تضع يدها على قلبها من وقع المفاجأة ، **قلت لها :**

- "آجنس" ياعزيزتي .. ارجوا ان تكون مفاجأة طيبة لك ان تريني هنا
- اني في غاية السرور لرؤيتك يا"تروتوود".

وجلسنا جنباً إلى جنب.. كانت صادقة كما كانت أبداً.. جميلة.. وطيبة.. وحاولت أن أشكرها على كل ما صنعته في الماضي من أجلي.. **وقلت لها في النهاية:**

- والآن يا "آجنس".. أخبريني عن نفسك..

فقالت بهدوئها المعتاد:

- ماذا أخبرك به؟.. إن أبي في حالة طيبة.. وها أنت ترانا نعيش في بيت ملكنا!.. يبدو أنك تفكر في شيء ما يا "تروتوود"..

وقلت لها:

- "أجنس".. دعيني أقول الآن ما أفكر فيه.. لقد جئت لأخبرك بأني علما أنك تحبين شخصاً ما.. وأرجو لا تخفي عني أي شيء يتعلق بسعادتك القريبة.. من هو ذلك الشخص.. أخبرني باسمه إذا كنت ما زلت تثقين بي...

وفجأة، هبت "أجنس" واقفة وهي تخفي وجهها بيديها وانفجرت في البكاء بدمع غزير فاض من عينيها.. **وكاد قلبي أن يتمزق وأنا اسألها في حيرة ولوعة:**

- "آجنس" يا عزيزتي.. ماذا فعلت حتى تبكي هذا البكاء كله..؟!

فقالت وقد ازداد بكاؤها وانهمار الدموع من عينيها:

- أرجوك يا "تروتوود".. دعني أذهب الآن.. إني لست في حالة طيبة.. وسوف نتحدث عن ذلك فيما بعد..!

وأخذتها بين ذراعي وهمست:

- أجنس يا حبي.. أنت أملي.. وأنت خير عون في حياتي..!

وارتاحت "أجنس" على صدري.. قريبة من قلبي.. ووضعت يدها الرقيقة على كتفي.. وتلألأت عيناها من وراء الدمع بنظرات حلوة حنون..

وقلت لها بكل الصدق:

- في أي مكان كنت اذهب إليه يا "أجنس" كنت أشعر بدبيب حبك في قلبي.. لقد سافرت بعيداً لأني أحبك.. وعدت الآن إليك لأني أحبك أكثر وأكثر..

وضعت كلتا يديها الرقيقتين على كتفي.. ونظرت إلي بوجهها الهادئ الجميل الرائق، **وقالت:**

- هناك شيء أريد أن أخبرك به..
- ما هو يا حبيبتي؟.. أخبريني!!
- لقد أحببتك طوال حياتي..!!